حياة النبي ﷺ
بين السيرة
والترجمة التحليلية
دراسة نقدية تطبيقية

إعداد الباحثة

رضا رمضان أحمد

أستاذ الأدب والنقد المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

فرع البنات بالمنصورة

حياة النبي ﷺ بين السيرة والترجمة التحليلية دراسة نقدية تطبيقية

رضا رمضان أحمد
أستاذ الأدب والنقد المساعد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية فرع البنات بالمنصورة.
البريد الإلكتروني: RedaAkra1201.el@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

مشكلة البحث: إقامة دراسة أدبية نقدية تقوم على الموازنة بين أسس المنهج التاريخي وأصوله ومعالمه ، وبين المنهج التحليلي للترجمة الغيرية لسيرة حياة النبي ﷺ.

أهمية البحث: تتمثل أهمية البحث في كونه دراسة نقدية تطبيقية لكتابين موضوعها واحد وهو حياة النبي ﷺ ولكن طريقة العرض والتناول مختلفة على يد أشهر من كتب عن حياته ﷺ الأستاذ الدكتور محمد حسين هيكل في كتابة " حياة محمد " والأستاذ العقاد في كتابه " عبقرية محمد "

أهداف البحث : يهدف البحث إلى الوقوف على خصائص المنهج التاريخي وكذا سمات المنهج التحليلي من خلال التطبيق على تناول حياة النبي ﷺ لدى كل من الأستاذ الدكتور محمد حسين هيكل ، والأستاذ العقاد.

الكلمات المفتاحية : (السيرة – الترجمة الأدبية – المنهج التاريخي – المنهج التحليلي– الترجمة الغيرية).

The life of the Prophet between biography and analytical translation An applied critical study

Reda Ramadan Ahmed
Assistant Professor of Literature and Criticism at the College of Islamic and Arabic Studies, Girls' Branch, Mansoura.
Email: RedaAkra1201.el@azhar.edu.eg

Abstract: Research problem: Establishing a critical literary lance between the foundations of the study based on a ba historical method, its origins and features, and the analytical method for the heterosexual translation of the biography of the Prophet, may God bless him and grant .him peace

nce of the The importance of the research: The importa research is that it is a critical and applied study of two books whose subject is one, which is the life of the Prophet, may God bless him and grant him peace. In his book "The "Genius of Muhammad

ut the Research objectives: The research aims to find o characteristics of the historical curriculum as well as the features of the analytical method through the application of dealing with the life of the Prophet, may God's prayers and peace be upon him, with Prof. Dr. Muhammad Husayn .or AkkadHaykal and Profess

Key words: (biography - literary translation - historical method - analytical method - heterosexual translation)

مقدمة

إن للحديث عن حياة النبي الكريم محمد ﷺ موضع أثير في النفوس ، ومكان يعطر صفو القلوب ، يناجى الأرواح المؤمنة بهمس المحبين له ، إنه النبي الكريم صاحب الأدب الرفيع ، والخلق القويم ، من أدبه ربه فأحسن تأديبه[1] وهذبه بالحق فأحسن تهذيبه.. إنه خير البشر قاطبة.. من اصطفاه ربه فصار إمامًا للمرسلينِ ، ورحمة للعالمين.

عند النظر في حياته ﷺ والبحث في جوانبها ، يصبح للدراسة مذاقًا خاصًا، ولونًا مميزًا ، وبريقًا أخاذًا يخطف القلوب ، ويجعل الباحث ، يعيش جواً روحانياً حانياً يحلق في الأفق الفسيح ، والسماوات الرحبة .. ذاك الأفق ، وتلك السماوات التي تأخذ بالألباب وتخطف العقول إنه محمد ﷺ الذي أدهش –وما زال– كبارالمفكريين والفلاسفة قديما وحديثا بحياته ، وفكره ، ورسالته ، ودعوته .

من أجل هذا وغيره ، ومن أجل حب دفين وهوى أصيل في نفسي ، وتقدير عظيم لشخصه الكريم ، أحببت أن أقترب منه ، ومن حياته علَّني أقتبس من نور فيضه الهائل ، وسبحات نفسه الحانية .

فطوفت ، وتاقت نفسي لقراءة حياة محمد ﷺ عند أبرز من كتب عنها من الأدباء. فوجدت الأصابع تشير إلى ذاك الأديب الكبير سعادة الدكتور محمد حسين هيكل ومؤلفه (حياة محمد) ، فقرأت الكتاب ، وأدهشتني طريقة عرض مادته ، وأسلوب الكاتب ، وحديثه عن حياة النبي الكريم ، واشتاقت نفسي لمعرفة المزيد عنه ﷺ، فذهبت إلي هذا الكم الهائل من المؤلفات الأدبية ، وتوقفت أمام مكتبة الأستاذ العقاد ومؤلفه (عبقرية محمد).

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « المعنى صحيح ، لكن لا يُعرف له إسناد ثابت» مجموع الفتاوى ط. المكتبة التوفيقية – القاهرة ١٨/ ٣٧٤.

عندها وجدت نفسي أمام مذهبين في الكتابة، والتأريخ ، ومنهجين في العرض، والسرد لكل واحد منهما بصمة مميزة ، وطابع خاص، فالموضوع واحد (حياة النبي ﷺ) ولكن طريقة التناول مختلفة. فأدركت أنه لابد من الوقوف ملياً للبحث ، والتمحيص في منهج الأديبين. فخضت غمار التجربة بمتعة بالغة ذلك لأنه حديث عن الشخصية التي تبهرني دائماً بعطاياها التي لا تنفد ، ولطبيعة البحث الأدبي الذي يقترب من نفسي ، وعقلي كثيرًا.

وكان لابد من الوقوف عند بعض الدراسات السابقة التي تخدم طبيعة الموضوع ، فبحثت في المكتبة الأدبية ، واستعنت ببعض المؤلفات التي ساعدتني على فهم طبيعة البحث وكان منها :

_ التراجم الغيرية في الأدب العربي الحديث _المفهوم والأصول والاتجاهات أد/ محمد أحمد العزب ط_ مطبعة الإيمان المنصورة .

_ الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث– د/ يحيى إبراهيم عبد دايم _ ط دار إحياء التراث العربي _ بيروت لبنان .

_ السيرة تاريخ وفن – د/ ماهر حسن فهمي _ط دار القلم .

_ العقاد وتراثه الإسلامي – د/ حمد نايف الشمري _ ط التقدم القاهرة .

_فن السيرة – د/ إحسان عباس ط دار الشروق عمان .

ومن ثَم وضعت خطة للبحث ، ومنهجا للدراسة بالوقوف على أهم ملامح المنهج التاريخي ، والمنهج التحليلي في تناول دراسة حياته ﷺ، واتخذت من (حياة محمد) للدكتور هيكل و(عبقرية محمد) للأستاذ العقاد أنموذجا للدراسة والتطبيق والتحليل ، ولم يمنعني ذلك من رصد بعض الخلل الحاصل في تطبيق الكاتبين للنهج الذي اتبعه كل منهما في بحث حياته ﷺ.

وأصبح بين يدي مجموعة من الأسئلة تحتاج إلى الإجابة عنها ، وتفرض نفسها في ثنايا البحث ، فبداية نتفق على أن ما كتبه الدكتور هيكل ، والأستاذ العقاد يندرج تحت ما يطلق عليه التراجم الغيرية ، فما الفرق بين السيرة والترجمة ؟ وما معالم المنهج التاريخي ، والمنهج التحليلي في الترجمة،

والأسس التي يقوم عليها كل منهج منهما ؟ وهل استطاع الدكتور هيكل والأستاذ العقاد الالتزم بالمنهج الذي أعلن كل منهما عنه في دراسة حياته صلى الله عليه وسلم ؟ وماذا عن بعض الانتقادات التي وجهت إليهما من النقاد في طريقة التناول والمنهج المتبع ؟

فمن أجل الإجابة عن تلك الأسئلة وغيرها وضعت خطة البحث كالآتي :

الفصل الأول : (مفاهيم ومصطلحات) وتم تقسيمه إلى مبحثين :

المبحث الأول : بين السيرة والترجمة .

المبحث الثاني : بين المنهج التاريخي والمنهج التحليلي .

الفصل الثاني :(الدراسة التطبيقية والنقدية) وتم تقسيمه إلى مبحثين :

المبحث الأول : المنهج التاريخي _ حياة محمد _ أنموذجا .

المبحث الثاني _ المنهج التحليلي _ عبقرية محمد _ أنموذجا.

ثم خاتمة ، فيها نتائج البحث وتوصياته أتبعتها بفهرست للمصادر والمراجع التي تم الاستعانة بها في البحث .

والله أسأل أن ينفعني بما درست ، وأن ينفع به غيري ، ويكون إضافة حقيقية للمكتبة الأدبية والنقدية.

(الفصل الأول)

مفاهيم ومصطلحات

المبحث الأول : بين السيرة والترجمة

كان لابد من الوقوف على الفرق بين مفهوم السيرة ، ومفهوم الترجمة قبل تفصيل الدراسة والتطبيق ؛ لتحديد الوجهة والمقصد عند الكاتبين ، فلكل وجهته وهدفه من الدراسة ، هذه الوجهة جعلت من حياته ﷺ خلقا جديدا مختلفا عند الدكتور هيكل(١) في (حياة محمد)(٢) وكذا الأستاذ العقاد(٣)

---

(١) محمد حسين هيكل ولد في ١٣٠٥هـ – ١٨٨٨م ، كاتب صحفي ، مؤرخ من أعضاء المجمع اللغوي ، ومن رجال السياسة بمصر. ولد في قرية كفر غنام بالدقهلية ، وتخرج بمدرسة الحقوق بالقاهرة ١٩٠٩م ، وحصل على الدكتوراه في الحقوق من السربون بفرنسا. ولي وزارة المعارف مرتين ، وتوفي سنة ١٣٧٦هـ – ١٩٦٠م.
الأعلام – الزر كلى – المجلد السادس ، ط. دار العلم للملايين – بيروت – لبنان ط ١٦.

(٢) طبع كتاب حياة محمد سنة ١٩٣٥في حوالي (٦٤١) صفحة تقريبا بحسب اختلاف الطبعات ، وله أكثر من طبعة منها طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، وطبعة دار المعارف ، يستهله المؤلف بإهداء ثم بسجل للمراجع العربية والأجنبية التي استعان بها في الكتاب ، ثم مقدمة للشيخ محمد مصطفى المراغي ثم تقديم للكتاب بقلم المؤلف .
عرض الدكتور هيكل مادته في الكتاب من خلال فصول متتابعة يبدأها بفصل يتحدث فيه عن بلاد العرب قبل الإسلام حتى يصل إلى الفصل الحادي والثلاثين الذي يتحدث فيه عن دفن الرسول ﷺ ثم خاتمة في مبحثين الأول عن الحضارة الإسلامية كما صورها القرآن ، والآخرعن المستشرقين والحضارة الإسلامية .وذيّل الكتاب بفهارس متنوعة ومرتبة كالآتي : فهرس الأعلام ، فهرس الأمم والقبائل والجماعات ، فهرس الأماكن ، فهرس الأيام والغزوات والوقائع ، فهرس الكتب ، فهرس الموضوعات .وفي النهاية خريطة توضح حدود بلاد العرب في حياة محمد .

(٣)عباس محمود العقاد ، ولد في ١٣٠٦ هـ – ١٨٨٩م ، إمام في الأدب ، مصري من المكثرين كتابة ، وتصنيفا مع الإبداع ، أصله من دمياط ، عمل أحد أجداده في عقادة الحرير. ولد عباس في أسوان وتعلم في مدرستها الابتدائية ، وشغف بالمطالعة ،=

في (عبقرية محمد)([1])

فهل ما كتباه ترجمة أم سيرة ؟ وما معني الترجمة إذاً ؟ وهل هناك فرق بينها وبين السيرة ؟

بداية السيرة غير الترجمة ، ذلك (أن كلمة الترجمة قد تعنى من منحى لغوى خالص معنى حياة أو قل رحلة معنى في الحياة ، أي أن كاتب الترجمة مطالب بالغوص ، والتحليل ، والاستبطان الداخلي في حركة إبداعه للترجمة... ربما لأن لكلمة الترجمة لغوياً ما ليس لكلمة السيرة من دلالة بادية أو مستترة قد توحي بهذا الاحتمال.. فترجم الرجل عما في نفسه أي عبّر عنه ، وترجم لغيره حاول استنطاق تاريخه أي التعبير عنه)([2]).

والترجمة منها : الترجمة الذاتية ([3])، و الترجمة الغيرية ، أما الذاتية فهي التي يترجم فيها الكاتب لنفسه ، وحياته ويخصص لأحداث حياته صفحات من

= وكان من أعضاء المجامع العربية الثلاثة (دمشق والقاهرة و بغداد). توفي في ١٣٨٣هـ – ١٩٦٤م. المرجع السابق ، المجلد الثالث

١) طبع كتاب " عبقرية محمد للأستاذ العقاد في سنة ١٩٤٢ وله أكثر من طبعة منها طبعة نهضة مصر وطبعة مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر في حوالي ١٥٤صفحة بحسب اختلاف الطبعات يبدأ بمقدمة يعلن فيها الأستاذ العقاد عن سبب تأليف الكتاب ثم يعرض مادته من خلال مجموعة من العناوين المتتابعة بداية من الرقم (١) ونهاية بالرقم (١٤) يبدأها بالحديث عن علامات المولد ثم عبقرية الداعي ، عبقرية محمد العسكرية ، عبقرية محمد السياسية ، عبقرية محمد الإدارية ، البليغ ، محمد الصديق ، محمد الرئيس ، الزوج ، الأب ، السيد ، العابد ، الرجل ، وفي النهاية يتحدث عن محمد في التاريخ

(٢) التراجم الغيرية في الأدب العربي الحديث – المفهوم والأصول والاتجاهات – أ.د. محمد أحمد العزب – مطبعة الإيمان – ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م – ص١٨.

٣) يطلق عليها مؤلف كتاب معجم المصطلحات الأدبية " السيرة الذاتية " ويعرفها بأنها " سرد قصصي يتناول فيه الكاتب نفسه ترجمة حياته الخاصة ... ولا يكشف كاتب السيرة=

كتاب يكون كل هدفه فيه هو رصد واقع عاشه ، أو يعيشه ، وذكريات طويت، أو مازال أثرها باقٍ ، وهي كثيرة في الأدب العربي ، أمثال: (أنا) للعقاد ، و(حياتي) لأحمد أمين ، و(الأيام) لطه حسين.. وغيرهم كثير.

أما التراجم الغيرية فهي التي يترجم فيها الكاتب حياة الآخرين ، ويرصد واقع حياتهم ، وتاريخهم ، وما كان لهم فيه من أحداث صنعت تلك الشخصيات ، ووضعت لهم قسمات مخصوصة ، تميزوا بسببها عن غيرهم ، ومن هنا يمكن القول بأن الترجمة الغيرية مصطلح تاريخي ولكنه أيضاً ليس تاريخياً بحتاً ، وإنما هو تاريخ برؤية فنان ، أو أديب ، أو بمعنى آخر تاريخ مغلف باللمحة الأدبية (التاريخ إذًا هو الأرضية الطبيعية لكل تحرك على مستوى التراجم الغيرية ، وهو يبقى تاريخاً في يد المؤرخ ، ولكنه يستحيل إلي خلق أدبي في يد الفنان المنشود لكتابة التراجم الغيرية)[1].

كما أن التراجم الغيرية ليست مصطلحاً أدبيا صرفاً ، لأنها لو كانت كذلك لتحولت إلي عمل قصصي ، أو روائي من تأليف الباحث ، ولا علاقة لها بالشخصية موضوع البحث .

وكاتب الترجمة الغيرية ليس أمامه إلا الأحداث الخارجية يتخذها وسيلة للوصول إلى الشخصية من الداخل فمهما يتعمق داخل الشخصية فهو يقدمها من الخارج إلى الداخل .

وتتسم التراجم الغيرية بالموضوعية ؛ لأن كاتبها يعتمد على الأخبار والروايات والوثائق والمصادر ، وهذا لايمنع أن تختلط تلك الموضوعية بقليل من ذاتية الفن خاصة إذا كانت الشخصية التي يُترجم لها تصور مثلا أعلى لكاتبها ؛ فهو بذلك يعبر عن مشاعره ، ووجدانه ، ليرضي بذلك دوافعه ويجسد أمانيه

=الذاتية عادة إلا تلك الأوجه التي يريد أن يتذكرها الناس ويعرفونها " – إبراهيم فتحي –ط– التعاضدية العمالية للطباعة والنشر – تونس

(١) المرجع السابق ص٥.

ومطامحه ،وهذا متحقق بلا ريب فيما كتبه الدكتور هيكل ، والأستاذ العقاد عن حياته ﷺ.

أما السيرة فالحديث عنها له طابع خاص. قريب من نفس كل من يقرأ فيها ذلك (لأن الأشخاص الذين يصلوننا بأنفسهم وتجاربهم هم الذين ينيرون أمامنا الماضي والمستقبل)[١]. وكأن في سيرة كل فرد من أولئك الذين كتبت عنهم سيرتهم درس وعظةً ، وخلاصة تجارب ، وأحداثً يستفيد منها الآخرون ، والأيام دول بين الناس .

والعظة لا تأتى إلا بمعرفة أخبار السابقين. لنستفيد من تجارب حياتهم ، فيكون ذلك عوناً لنا في متابعة مسيرة الحياة المتغيرة المتقلبة خاصة سير العظماء ، والعباقرة ، والنابغين . ولاشك أن أعظم، وأنبغ النابغين هو سيد المرسلين محمد عليه أصدق الصلاة وأزكى التسليم.

فسيرة حياته نبراس يضيء للآخرين دروبهم ليقتبسوا من نور هديه المبين الذي هو وحي من رب العالمين .

وهذا ما حدث بالفعل ، فعندما بدأ المسلمون في كتابة السير ، دونوا سيرة الرسول ﷺ.

(وكان هذا البدء يشير إلى درس أخلاقي عميق في حياتهم ، لو شاءوا أن يتخذوا سيرة الرسول لتلك الغاية، ولكنهم لم يفعلوا بل كتبوا سيرته تحت مؤثرات أخرى)[٢]. ولعل ذلك راجع إلى عاملين كبيرين: الأول : أن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم جزء من السنة المصدر الثاني للتشريع ، والثاني : أن المسلمين كانوا قد ورثوا نظرة الجاهلية إلى التاريخ (وهى نظرة قائمة على الأيام وطبيعة الحرب وشئون القتال ولذلك اهتم كتاب السير قبل كل شيء

(١) فن السيرة ، د. إحسان عباس – ط. دار الشروق عمان ، ط. الخامسة ١٩٨٨م ، ص٦.

(٢) المرجع السابق ص١٤.

بمغازي الرسول ، وتصوير ذلك الدور الحربي الذي أدى إلى انتصار الرسول في النهاية)[1].

فالمؤلفات التي تناولت سيرة الرسول ﷺ كثيرة وقديمة ؛ منها ما يعد بمثابة الأصول والثوابت لابد من الرجوع إليه عند كتابة سيرة النبي – ﷺ، كسيرة ابن إسحاق ، والسيرة التي بنى منها ابن سعد الجزأين الأولين من كتاب الطبقات ، ومغازي الواقدي ، فإن تلك المؤلفات وأمثالها تعد أساسا للمعلومات المقررة المقبولة عن حياة الرسول ﷺ وأعماله ، (أما ما كتب بعد ذلك فإنه كان في أكثره جمعاً لروايات مختلفة أو قبولا لبعض الأساطير المتأخرة ، وربما كان أيضاً شرحاً لبعض الألفاظ والمناسبات ، أو نظماً لأحداث السيرة أو تلخيصًا لها)[2].

وفى العصر الحديث مازال الإحساس مفعما بالحديث عن سيرة الرسول –ﷺ على الرغم من كثرة المؤلفات التي خاض أصحابها هذا الغمار إلا أن الشوق بالقرب لا يزال يداعب أذهان ، وقلوب الأدباء وسيظل يراود أحلامهم ، و آمالهم. ففي كل مرة يكتب فيها أديب عنه – ﷺ– تتفتح على يده أفانين وجوانب في شخصه الكريم لم يقف عليها من قبله باحث. فعطاياه الشخصية ، وجوانب حياته المعيشية لا تنفد ولا تنتهي مما يجعل الباحثين في عمل دائب ، وشغف مثابر ؛ للكشف عن كنوز هذه الشخصية التي صاغها رب الأرباب ، وأعطاها ما لم يعط غيرها ، الحي الوهاب ، وشكلها فكونها مسبب الأسباب.

ولعل هذه العاطفة ، هي التي دفعت الدكتور محمد حسين هيكل أن يكتب عن «حياة محمد» ﷺ بشيء من التفصيل والإسهاب ؛ ميلاداً وخطوباً ونهاية ، ويتناول في كتابه موضوعات كثيرة بداية من الحديث عن بلاد العرب قبل الإسلام ، ومكة ، والكعبة ، وقريش ، ثم محمد من ميلاده حتى زواجه ،

(١) المرجع السابق ص١٤.
(٢) المرجع السابق ص١٧.

وكذا من زواجه حتى بعثته وهجرته ، ثم غزوة بدر وغزوة أحد... الخ من الأحداث الكبرى التي وقعت في حياة النبي ﷺ حتى وفاته ، ويصرح في مقدمة الكتاب بالطريقة التي اتبعها فيه بقوله إنما أردتها (دراسة علمية على الطريقة الغربية الحديثة خالصة لوجه الحق ولوجه الحق وحده)[١].

ويؤكد ذلك مرارًا فيعود قائلًا: (إنني أجري في هذا البحث علي الطريقة العلمية الحديثة ، وأكتبه بأسلوب العصر)[٢] ، هذه الطريقة التي اتبعها هيكل في مؤلفه عن حياة محمد ، وهذا الحشد الهائل لكمية الأحداث التي وقعت قبل، وبعد ميلاد الرسول ﷺ يجعلني على يقين بأن ما كتبه الدكتور هيكل إنما هو سيرة لا ترجمة بالنظر لما كتبه الأستاذ العقاد في «عبقرية محمد» هذا التدقيق في انتقاء الأحداث ، والوقوف على تجارب خاصة ، وأحداث بعينها ، وتحليلها ومناقشتها بالأخذ ، والرد يدعونا إلى القول بأن «عبقرية محمد» ترجمة وليست سيرة ، ومن هنا يمكن التسليم بأن (عبقريات العقاد مثلا ليست سيراً على أي نحو من الأنحاء ، لأن الرصد التاريخي ، وتسلسل الأحداث في نمطها المنطقي ، والابتداء من منطق البدء ، والانتهاء عند نهاية المطاف ، كل أولئك لا يمثل واقعاً على صفحات العبقريات ، ولكنها تراجم أدبية بلا محاولة للتزيد ، إن الحادثة لا تعني فيها مجرد حجمها الحلولي بقدر ما تعني كل أحجمها النفسية ، والبيئية والرسالية ، وهذه سمات التراجم الأدبية وليس غيرها من الأنواع)[٣].

ومن يقرأ (عبقرية محمد) يلمس بوضوح صدق هذا الكلام فهو لايُعنى بسرد أحداث حدثت لمحمد ﷺ، ويتبع الحدث تلو الآخر بدءًا ونهايةً وإنما يقف عند حوادث بعينها لا غيرها ؛ كي يحقق الهدف الذي ارتضاه لنفسه من خلال الحديث عن شخصه الكريم ، وهو بيان جوانب العبقرية فيه من منطلق

(١) حياة محمد ص٣١.
(٢) المرجع السابق ص٥٣.
(٣) التراجم الغيرية في الأدب العربي الحديث – ص١٨.

الوقوف عند أحداث بعينها تكون دليلاً على تلك العبقرية ، وكذا من خلال عرضه لجوانب حياتية عاشها ، وأوجدها ، وصاغها ، وشكلها ﷺ، زوجا وداعيا وعسكريا.. إلخ فأنماط محددة بعينها وقف عندها الكاتب يبين ، ويطبق عليها صفة العبقرية في ذاته ﷺ مع اختلاف صورها ، وتعدد مناحيها.

والعقاد نفسه يعترف بذلك في المقدمة قائلا: (فسيري القارئ أن «عبقرية محمد» عنوان يؤدى معناه في حدوده المقصودة ولا يتعداها إلى غيرها ، فليس الكتاب سيرة نبوية جديدة تضاف إلى السير العربية ، والإفرنجية التي حفلت بها المكتبة المحمدية حتى الآن ، لأننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها في هذه الصفحات ، على اعتقادنا أن المجال متسع لعشرات من الأسفار في هذا الموضوع ، وليس الكتاب شرحاً للإسلام أو لبعض أحكامه ، أو دفاعًا عنه ، أو مجادلة لخصومه ، فهذه أغراض مستوفاة في مواطن شتى، يكتب فيها من هم ذووها ولهم دراية بها وقدرة عليها ، إنما الكتاب تقدير لعبقرية محمد بالمقدار الذي يدين به كل إنسان ولا يدين به المسلم وكفى ، وبالحق الذي يبث له الحب في قلب كل إنسان ، وليس في قلب كل مسلم وكفى)[1].

من خلال ما سبق يتضح أن لكل منهما وجهته ومقصده ، فالدكتور هيكل يحشد في كتابه كل ما جمعه من أخبار عنه ﷺ، غرضه من ذلك كتابة سيرة تاريخيه عنه ﷺ، أما الأستاذ العقاد فله وجهة أخرى غرضه منها تحليل أحداث وأخبار بعينها في حياته ﷺمن شأنها أن تؤدي إلى هدف معين يحقق له تأكيد صفة العبقرية في شخصه ﷺ، وإن كان ذلك لايمنع من أن العملين يندرج تحت ما يسمى "بالترجمة الأدبية الغيرية" بيد أن الدكتور هيكل ينحى بها نحو السير التاريخية ، أما الأستاذ العقاد فيهدف بها نحو الترجمة التحليلية .

#المبحث الثاني : بين المنهج التاريخي والمنهج التحليلي

(١) عبقرية محمد– الأستاذ العقاد – ط مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر ص٥.

مما سبق يتضح أن للدكتور هيكل منهجه(١) في عرض حياة النبي الكريم ، وللأستاذ العقاد وجهته ، وطريقته في التناول ، ومنهجه في البحث – مع اعتبار أن الموضوع واحد – وهو حياة النبي ﷺ. هذه الطريقة جعلت ، أو بمعنى أدق أوجدت للكاتبين منهجًين مختلفين في الصياغة والعرض ، كل منهج يعكس شخص صاحبه في عمله ، وطريقة تفكيره بين سطوره ، ومعالجة خاصة للمادة الأدبية في ثنايا صفحاته.

فما المنهج الذي اتبعه الدكتور هيكل في «حياة محمد» وكذا المنهج الذي سار عليه الأستاذ العقاد في «عبقرية محمد»؟

مناهج البحث الأدبي كثيرة ، ومتنوعة منها : المنهج التاريخي الذي "يعتمد على الوثائق ونقدها وتحديد الحقائق التاريخية وكذا التركيب والتأليف بين هذه الحقائق وتفسيرها من أجل فهم الماضي ومحاولة فهم الحاضر على ضوء الأحداث الماضية "(٢)

ومنها المنهج التحليلي وهو "لون من ألوان الكتابة المعتمدة علي التحليل النفسي للبطل ، والأحداث ، والشخوص الثانويين ، وكدح الكاتب وراء إقامة توازن حي بين بطل الترجمة ومقولاته وبينه وبين المنهج العام لفلسفته "(٣)

وغيرهما ، والباحث يختار أيَّ المناهج يصب فيه تجربته ، ويعرض من خلاله مادته الأدبية ، ويطوع المنهج الذي يرتضيه تبعًا للهدف الذي يقصده ، والغاية التي يسعي إليها من وراء البحث.

---

(١) المنهج: نهج طريق نهج: بيّن واضح ، والمنهاج: الطريق الواضح. لسان العرب (مادة ن هـ ج) ، ط. دار إحياء التراث العربي – مؤسسة التاريخ العربي –بيروت لبنان ط. ٢– ١٤١٢والمنهج: المسلك الذي يسير فيه الباحث للوصول إلي المعرفة بواسطة طائفة من القواعد والعمليات التي يتبعها العقل ، والحس للوصول إلي نتيجة محددة. –راجع البحث الاجتماعي – المنهج وتطبيقاته تأليف دكتورة حكمت عرابي ط. ١ –١٤١٠–١٩٩٠ص١.

٢) أصول البحث الأدبي ومناهجه د/ السيد تقي الدين ط دار نهضة مصر ص١٤٧

٣) التراجم الغيرية – أ د محمد أحمد العزب ص ١٦٦

اختار الدكتور هيكل لنفسه في كتابه «حياة محمد»"المنهج التاريخي "حيث نظر إلي حياته ﷺ بمنظار المؤرخ الذي يكتب ما ورد في كتب السابقين عن حياته ﷺ، ويضع يده على كل ما تم أخذه من المصادر السابقة التي تحدثت عن الموضوع نفسه، ويعرضها بإسهاب ، وتفصيل فلا يكاد يترك حادثةً أو موضوعًا يتصل بشخصية صاحب السيرة إلا وينقله ، ويتحدث عنه في مسحة تاريخية الغرض منها إلقاء الضوء المكثف على حياته ﷺ ميلادا ، وحياة ، ووفاة ، واعتمد على الأساسيات التي يقوم عليها الباحث أثناء استخدام هذا المنهج من الاستقراء الكامل ، وتجنب استخدام الأحكام الجازمة ، وكذا التعميم العلمي ، وتلك لوازم من أساسيات المنهج ، وعدم الالتزام بها في البحث يعد عيبا في تطبيق هذا المنهج ، فالاستقراء الناقص يؤدى إلي خطأ في الحكم ، وذلك نتيجة للاعتماد علي الأحداث البارزة فقط ، والظواهر الفذة التي لا تمثل سير الحياة الطبيعية ، فالأحداث الصغيرة لا تقل أهمية عن الحوادث البارزة والظاهرة ، بل ربما تكون أكثر وضوحاً ودلالة علي حياة الفرد أو الشخصية[١] وهذا ما فعله دكتور هيكل ، فقد عرض كل صغيرة ، وكبيرة عن حياته ﷺ، وعمل على سرد لجميع الأحداث التي مر بها أو مرت به ، ولعل ذلك هو الذي دفع أحد النقاد أن يقول صراحة بعد اطلاعه على (حياة محمد) لهيكل: (إن كاتبًا كالدكتور محمد حسين هيكل في "حياة محمد " يعتبر صاحب اتجاه تاريخي في مقابل أن كاتباً كالعقاد في عبقرية محمد يعتبر صاحب اتجاه تحليلي.. لأن الأول منهما عني باستقصاء حياة النبي – ﷺ – ميلاداً .. وخطوباً..ونهاية .. في حين أن الثاني منهما – العقاد – ركز على ظواهر صميمية من حياة النبي على نحو انتقائي ظاهر الوضوح ..وأخذ يبني عمله على ضوء من هذا الانتقاء)[٢].

(١) النقد الأدبي – أصوله و مناهجه ، د. سيد قطب ، ط. دار الشروق – ط الرابعة ١٤٠٠– ١٩٨٠– بيروت ص١٤٧.

(٢) التراجم الغيرية في الأدب العربي الحديث – أ.د. محمد العزب ، ص٩٥.

وليس معني ذلك أن د/ هيكل عزل نفسه عن الأخذ بالمناهج الأخرى. فلابد من التداخل ، والتزاحم بين المناهج الأدبية ، ويصعب جدًا الفصل بينها فقد وقف ، وتأمل ، وحلل فأخذ من المنهج التحليلي بطرف (١) إلا أن السمة الغالبة على كتابه هي السمة التاريخية ، وعنصر السرد هو الطاغي على غيره من العناصر ، ومن هنا اعتبر بهذا العمل رائداً للمنهج التاريخي في التراجم الغيرية(٢).

وهو بذلك أصبح مقابلاً للأستاذ العقاد الذي اعتمد على التحليل والمناقشة والأخذ ، والرد ، والانتقاء ، والاختيار من حياته ﷺ فكان العنصر الطاغي والاتجاه السائد في «عبقرية محمد» هو "المنهج التحليلي " ويتضح ذلك منذ الوهلة الأولى، أو بمعنى أدق الصفحات الأولى للعبقرية فعندما أراد أن يتحدث عن مولده ﷺ تدرج محللا ؛ بدءًا بالحديث عن عالم، ثم أمة، ثم قبيلة ، ثم بيت، ثم أب ،ثم رجل ثم بشائر الرسالة ، كما يتضح التحليل أيضاً في العرض الداخلي لهذه الجزئيات التي عنونها بعلامات المولد .

(فالعبقريات أو ما كتبه العقاد على مثالها ليست سيرا بالمعنى الدقيق ، ولكنها تفسير لبعض مظاهر الشخصيات الكبيرة ، والأحداث ، والأقوال المتعلقة بها ، على قاعدة شبيهة بالتحليل النفسي وليست هو ، وإنما هو لباقة في العرض ، ومهارة في اللمح والتفسير، ولا يستقصي العقاد في هذه النماذج ، وإنما يتناول المتعارف المشهور بتفسير جديد)(٣)

ولكن كيف كان التطبيق ؟ هل التزم الدكتور هيكل بالمنهج الذي أعلن عنه في المقدمة ؟ وهل طبق الأستاذ العقاد المنهج التحليلي وفق قواعده وأصوله ؟

---

١) للتحقق من ذلك راجع ما كتبه الدكتور هيكل في مقدمة الكتاب " كيف فكرت في وضع هذا الكتاب " ففيه تفصيل يؤكد أنه لم يدع المنهج التحليلي جانبا ، ولكنه عمل به في ثنايا الكتاب وفصوله .

(٢) المرجع السابق ص٩٦.

(٣) فن السيرة د / إحسان عباس ص٦٢.

(الفصل الثاني)

الدراسة التطبيقية

#المبحث الأول : المنهج التاريخي (حياة محمد أنموذجا)

لقد كان د/ هيكل فنانا وعالما في ذات الوقت ، ينحى في مؤلفه «حياة محمد» منحى قصصيا أو دراميا مشحونا بغير قليل من العواطف الجائشة (ولكن ذلك لم يتحيف كثيرا من طبيعة المنهج العلمي الصارم الذي التزم به في هذا الكتاب)[١] وأعلن عنه في بدايته ، ووضع ذلك نصب عينيه حتى لا يحيد عن الطريق الذي خطه لنفسه ، والدرب الذي ارتضاه من أجل الوصول إلي غايته. وقد وضع د/ هيكل أساسيات المنهج التاريخي الذي ارتضاه ، يتضح ذلك جليا عندما اعتمد على القيمة العقلية في كل ما يتصدي له أثناء الحديث عن حياته ﷺ واستطاع أن يقارب بين هذه القيمة العقلية ، وبين المعجزات ، والخوارق التي تخرج بطبيعتها عن منطق العقل وتتخطى قوانينه (والحق أن الرجل كان موفقاً إلى مدى بعيد . فلقد اختار أن يتناول محمداً من المنحى الإنساني مؤكداً أن فذاذته في هذا الصدد وارتفاع قامته المديدة إلى أفاق تنحسر دونها عيون العباقرة ، والنابغين هو وحده الدليل الحاسم على نبوته ، وهو وحده المدخل الطبيعي إلى التسليم له بكل الخوارق والمعجزات من غير حاجه إلى جدل)[٢].

لعل هذا ما دفعه إلى أن يقف إزاء كل القضايا الكبرى التي يعرض لها أثناء حديثه عن حياة النبي ﷺ موقف البادئ (بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ، ثم بالاستنباط القائم على المقدمات العلمية ، فإذا وصلت إلى نتيجة من ذلك كله كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص ، ولكنها تظل علمية ما لم يثبت البحث العلمي تسرب الخطأ إلى ناحية من

(١) التراجم الغيرية ص١١٢.
(٢) المرجع السابق ص١٢٠.

نواحيها ، وهذه الطريقة العلمية هى أسمى ما وصلت إليه الإنسانية في سبيل تحرير الفكر، وها هي ذي مع تلك طريقة محمد وأساس دعوته)[١].

ودفعه التزامه بالمنهج التاريخي إلى الاهتمام بمجموعة من الأوساط كاهتمامه " بالوسط الطبيعي " الذي يمثل حديثه عن الموقع الجغرافي والبيئة الصحراوية التي يسكن فيها النبي ﷺ، وكذا اهتمامه "بالوسط الاجتماعي" الذي يختص بالحديث عما يميز سكان المنطقة من ملامح ، وأنظمة جسمية ، وأخلاقية ، وعقلية.

وأيضا اهتمامه " بالوسط النفسي" أثناء حديثه عن المتغيرات ، والظواهر التي تحدد علاقة الفرد بضميره ، والفرد بغيره .

ونجده أيضًا يهتم اهتمامًا بالغًا " بالوسط الفكري" الذي يقصد به دراسة كل ما تقع عليه عين البطل من جمال في الإبداع ، وتحرر في النظرة ، وتطور في الفكر.

وأيضا حديثه عن " الوسط الذاتي" وعرضه لما يكون عليه الإنسان من الجانب المادي ، والجانب الفكري من حيث هو مناط التحرر أو الجمود[٢].

وهو بذلك يفتح المجال أمام الباحثين لدراسة منهج تاريخي يختلف عن منهج القدماء فهو: يجمع ، ويحقق ، وينقد ، ويرتب ، ويفسر .

كما يلتزم في كتابه أثناء عرضه لحياته ﷺ بما يسمي بـ (تنامي الترجمة) أي أنه يتحدث عن الشخص الذي يترجم له من نقطة الميلاد ويسير وفق الحوادث الطبيعية حتى نهاية حياته ، فتشعر أنه يكتب لا لغرض ديني تعبدي، وإنما للبحث والعلم. وفي سبيل ذلك تراه يركز على دراسة العصر ، والحضارة ، والدولة.... فهو في «حياة محمد» (قد جلى موقف الإمبراطورية الإسلامية الأولى ، وعلاقات هذه الإمبراطورية الإسلامية على مستوى عقائدي

(١) المرجع السابق ص١٢١.

(٢) التراجم الغيرية – بتصرف شديد ص١٢٢.

وسياسي : على مستوى عقائدي في اشتباكها مع الديانات الأخرى في حوار عميق ، وعلى مستوى سياسي في اشتباكها مع الروم والفرس والعرب المناوئين)[١].

وهو في عرضه للمادة العلمية إنما يعتمد على المصادر القديمة ، ويستفيد من المراجع الحديثة ، مؤمناً أن هذا البحث لا يعد النقطة الأخيرة في الحديث عن هذا الميدان . ربما كان الأساس الأول الذي يعد نقطة لانطلاق كثير من الأبحاث التي تخدم الميدان نفسه ، وهو دائما ما يذكّر القارئ أن بحثه في (حياة محمد) لا يمثل الكلمة الأخيرة في هذا الميدان فيتوجه إلينا قائلا: (هذه هي الطريقة التي جريت عليها منذ بدأت هذا البحث في حياة محمد صلى الله عليه وسلم صاحب الرسالة الإسلامية وأنا منذ اعتزمت القيام بهذه الدراسة إنما أردتها دراسة علمية على الطريقة الحديثة خالصة لوجه الحق ، ولوجه الحق وحده)[٢].

وهو في سبيل التزامه بالمنهج التاريخي على الطريقة العلمية الحديثة يتوقف في بحثه عن حياة محمد عند ظواهر يقف عندها ، ويعرضها ، ظواهر فرضتها طبيعة الحياة المعاصرة ، واهتمام كثير من المستشرقين بدراسة حياته صلى الله عليه وسلم وجرأتهم على شخصه الكريم ، واتهامه بما هو منه براء فيقف ، ويناقش ، ويدافع بالحجة ، والبرهان. من ذلك وقوفه عند ظاهرة (التبشير والطعن ودعوة الاستعمار ضد الإسلام) فيتحدث عن كره كثير من الغربيين النصارى واليهود للإسلام ، ويرجعون سبب انحطاط بعض الشعوب الإسلامية إلى الإسلام نفسه فيدافع عن الإسلام الذي كان سببا في تقدم العرب البدو في الجاهلية حتى كادوا يحكمون العالم.[٣] كما يقف الدكتور

(١) المرجع السابق ص١٢٥.
(٢) حياة محمد ص٦١.
(٣) راجع حياة محمد ص٢٨.

هيكل أيضا أثناء ترجمته لحياة محمد عند حادثة (الفداء والذبح)[١] تلك الحادثة التي كان بطلاها إبراهيم وولده إسماعيل – عليهما السلام – وناقش تلك القصة من الوجهة العلمية ، والعقلية بعد أن عرضها في كل الروايات في القرآن الكريم ، وفي التاريخ ، وعلى ألسنة الرواة ، وعند مؤرخي الغرب. ويظهر من خلال عرضه لتلك القصة عقلانية البحث ، وعلمية المنهج عندما يعرض الرأي ونقيضه ، ويناقش الدليل وما يعارضه.

كما تحدث عن (الفكر والسيف) ، (فأكد أن عقيدة من العقائد أو دعوة من الدعوات لا يمكن أن تنشر هكذا بضربة سيف ، وإذا كانت تلك هى طبيعة العقائد كلها ، والدعوات كلها فإن الإسلام أولى أن يكون طليعة كل أولئك على السواء ، لقد هوجم ، وجرح وشهر السيف عليه مرات ، كل ذلك وهو معتصم بالكلمة أساسا للحوار وبالموقف أساسا للسلوك)[٢]

وبهذا استطاع الدكتور هيكل أن يضع أساسا لمنهج تاريخي جديد يجمع بين الأصالة ، والمعاصرة في دراسته ، وطريقة تناوله للمادة البحثية ، وأن يضع بصمة عميقة في تاريخ الدراسات الأدبية التي تتخذ من المنهج التاريخي طريقا لها ، وغاية يسعى من خلالها لتحقيق هدف هو أسمى من تلك الغاية ، وأبعد منها .

وطبيعي أن يلقى هذا المنهج وطريقة العرض تلك قبولا من بعض الباحثين. في حين لايلقى قبولا من بعض الآخرين ، ويجد في تطبيق د/هيكل لهذا المنهج بعض الثغرات التي وقع فيها، ويكشف عدم تمكنه من تطبيق هذا المنهج بعناية ، أو عدم موافقته لما قام بمناقشته ، أثناء عرضه لبعض القضايا ، أو تلك الظواهر التي وقف عندها ، أو وجد في المصدر الذي

(١) راجع حياة محمد ص٨٥.
(٢) التراجم الغيرية أ.د. محمد أحمد العزب ص١٣٥.

استقى منه هيكل طريقا للطعن فيه من جهة ضعف روايته وسنده أو غير ذلك من الطرق التي تضعف بها الروايات و النقول.

على أن باحثًا لم يعصف بكتاب «حياة محمد» كما عصف الدكتور فاروق حمادة، الذي صوب سهام نقده اللاذع على الكتاب ، وصاحبه وسخر في كثير من الأحيان من صنيع الدكتور هيكل ، وكتابه ، وطريقته ، ومنهجه ، ورواياته التي اعتمد عليها بأسلوب بعيد كل البعد عن الموضوعية في النقد ، والاحترام في التعبير. فليقل هو وغيره ما يشاءون ولكن بأسلوب مهذب يليق بناقد درس ، وفكر ، وناقش ، وعبر.

والاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية ، والمعارك الأدبية كثيرة ولها تاريخ طويل. ولكن لابد أن يتحلى الناقد بالأسلوب المهذب الراقي الذي يوصل المعلومة النقدية دون تجريح وهدم ، وليكن غرضه وهدفه البناء والتقييم لا الهدم والتجريح.

فيعقب د/ حمادة على الطريقة التي اتبعها د/هيكل في كتابه «حياة محمد» عندما قال إنه أرادها طريقة علمية حديثة مكتوبة بأسلوب العصر خالصة لوجه الحق لا غير ، فينقد هذه الطريقة قائلا: (لكن أسلوب العصر ، والطريقة العلمية ، ومنهجه الصحيح الحديث ، لم يعين مساربها و جوادها ، ولم يحدد معالمها و منائرها لا من قريب ولا من بعيد ، بل إن قارئ الكتاب أول ما يلاحظه في سرد الأحداث ، ومعالجتها أنها سيقت دون منهج أو مسار محدد، بل كانت مجموعة منتقاه على ذوق المؤلف وحسب رأي جامعها)[1].

والحق أن هذا كلام مخالف لما سبق الحديث عنه في هذا البحث عن المنهج الذي أراده هيكل في كتابه «حياة محمد» وطريقته في عرض مادته العلمية ، وجمعه بين المنهج التاريخي كما عرفه القدماء، والأسلوب المعاصر من

(١) مصادر السيرة النبوية وتقويمها ط – دار الثقافة – الدار البيضاء – الطبعة الثانية ص١٥٠

الجمع ، والشرح ، والتفسير، والتنسيق فقد " وفق الدكتورفي تنسيق الحوادث وربط بعضها ببعض ، فجاء كتابه عقدا منضدا وسلسلة متينة محكمة الحلقات . وقد أبدع في بيان الأسباب والأغراض والحكم بيانا قويا واضحا يجعل القارئ مطمئن النفس رضي القلب يستمتع بما يقرأ ويثلج صدره ببرد اليقين ، فيملك عليه أمره ، ويجبره على متابعة القراءة حتى يوفي على آخره ما بيده من البحث "(١)

ويتهم د/حمادة الدكتور هيكل بأنه قلل من الاستشهاد بالآيات القرآنية في حين أنه صرح بأن اعتماده الأول سوف يكون على القرآن الكريم باعتباره المصدر الأول للسيرة المحمدية حيث قال: (ولقد تبينت أن أصدق مرجع للسيرة إنما هو القرآن الكريم فإن فيه إشارة إلى كل حادث من حياة النبي العربي يتخذها الباحث منارا يهتدي به في بحثه ويمحص على ضيائه ما ورد في كتب السنة)(٢).

ويعقب الكاتب علي ذلك قائلا: (ولكن أثر ذلك لم يظهر في بحوث الكتاب ، بل كان يلوي الآيات القرآنية القليلة التي استشهد بها عن مواضعها ويستدل بها استدلالات بعيدة)(٣).

إذًا نحن بصدد اتهامات يتهم بها الدكتور حمادة منهج الدكتور هيكل في حياة محمد:-

الأول: أن بحوث الكتاب يقل فيها الاستشهاد بآيات القرآن الكريم ، وهذا مخالف للنهج الذي أعلن عنه صاحبه.

الثاني: أنه يلوي الآيات القرآنية عن مواضعها ويستدل بها استدلالات بعيدة.

الثالث : أنه يتظاهر بالدفاع عن الرسول ﷺ في عرضه لبعض الأحداث التى تم الحسم فيها سابقا على أيدي نقاد كبار .

---

١) حياة محمد – ص ١٧ – والنص من مقدمة للكتاب بقلم الشيخ مصطفى المراغي

(٢) حياة محمد – ص٣٢.

(٣) مصادر السيرة النبوية وتقويمها ، ص ١٥١.

الرابع : اعتماده على روايات ضعيفة غير موثقة ينقلها عن كُتاب الغرب .

الخامس : إصدار الأحكام الجازمة التي لاتتفق وطبيعة المنهج التاريخي .

ونستطيع منذ الوهلة الأولى لتصفح «حياة محمد» أن نبطل بعض ما زعمه د. حمادة وما رمى به كتاب "حياة محمد" للدكتور هيكل ، أما الاتهام الأول فمردود بما هو موجود في الكتاب ، فلا تكاد تخلو صفحة من صفحات الكتاب من الاستشهاد بآيات الذكر الحكيم ، فهي تلمع كالشهاب بين ثنايا السطور ، ويلوح ضوءها كالقبس المضيء من وقت لآخر ، و يقتبس من القرآن الكريم آيات طويلة ، وكثيرة ، فبطل بذلك زعم الزاعم ، وبهت اتهامه.

أما الثاني : فكونه يلوي الآيات القرآنية عن مواضعها ، فهذا أيضا منه براء بأكثر من دليل ، وفي أكثر من موضع في الكتاب. فلك أن تقف على أي استشهاد قرآني أورده المؤلف في كتابه وتعقد الصلة بينه وبين ما ورد في سياقه فسوف تدرك على الفور اللحمة القوية ، والصلة القوية بين الآية موضع الشاهد ، والمناسبة التي سيقت من أجلها والأمثلة كثيرة لا حصر لها ، فمثلا أثناء حديثه عن إبراهيم –عليه السلام– يروى قصته مع أبيه وتحطيم الأصنام ويستدل بما ورد في القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) ﴾[1] ثم يقول د/ هيكل: (وإنما فعل إبراهيم هذا بعد إذ فكر في ضلال عبادة الأصنام وفيمن تجب له العبادة)[2].

ثم ينقل قوله تعالي: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ إلي قوله تعالي: ﴿ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[3].

وأما الثالث : اتهامه بأنه يتظاهر بالدفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول: (إنه في نصفه الأول لا يختلف عن كتاب أي مستشرق غربي رغم أن

(١) سورة الأنبياء: آية ٦٢ ، ٦٣.

(٢) حياة محمد، ص٨٤.

(٣) سورة الأنعام: الآيات من ٧٦ إلي ٧٩

مؤلفه تظاهر بالدفاع عن الرسول ﷺ في قصة الغرانيق (١)، وزواجه من السيدة زينب بنت جحش لكن دفاعه عن قصة الغرانيق ينطبق عليه المثل القائل: جهاد في غير عدو ، وقتال في غير معركة ؛ لأن هذه المعركة قد أنهاها قبله علماء كثيرون منذ الصدر الأول باعترافه هو)[٢]. وبالفعل من يتتبع الحديث عن قصة الغرانيق في كتب السيرة والصحاح يتحقق من ورود جدل كبيرحولها .والحق أن د/ هيكل لم يكتفِ أثناء عرضه هذه القصة بنقل حديث الآخرين عنها في دفاعهم عنه ﷺ، وإنما أضاف من فكره ووجهة نظره بما يثبت ضعف أسانيد تلك القصة ، وأنها ظاهرة الكذب ينفيها التمحيص العلمي .(٣)

أما رابع الاتهامات فهي أنه يعتمد على روايات ضعيفة غير موثقة فيقول ذلك ، ويكرره في أكثر من موضع فيعقب على ما قاله د/هيكل (وسجي حمزة ببرده وصلى عليه)[٤] ، فيقول معقبا على هذه الرواية: (وهي رواية واهية فهي من

---

(١) قصة الغرانيق : رواية وردت في بعض كتب التاريخ والتفسير والبعض يكذبها ولها أصل في صحيح البخاري ورواها الطبري وابن أ أبي حاتم والبزار وملخصها كما في الفتح : أن النبي ﷺ فرأ بمكة " والنجم "فلما بلغ "أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى " ألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترجى ، فقال المشركون : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم ، فسجد النبي ﷺ ومن معه من المسلمين ، وسجد معهم المشركون ، فكان هذا سبب نزول قول الله تعالى " وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا ألقى الشيطان في أمنيته ...." وقد كثر الحديث عن مدى صحة هذه الروايه وغيرها . – فتح الباري بشرح صحيح البخاري – ابن حجر العسقلاني – تحقيق محب الدين الخطيب وآخرون – كتاب تفسير القرآن باب وترى الناس سكارى – ط – دار الريان للتراث – القاهرة والغرانيق : جمع غرنوق وهو طائر مائي أبيض طويل الساق جميل المنظر وهوضرب من الكراكي .لسان العرب مادة غ.ر.ق .

(٢) مصادر السيرة النبوية وتقويمها – د. فاروق حمادة ، ص١٥٠.

٣) لمزيد من التفصيل راجع – حياة محمد – ص ١٧٥ وما بعدها

(٤) حياة محمد ، ص ٢٤٦.

رواية الحسن بن عمارة وهو ضعيف بإجماع أهل الحديث في حين أبهمه ابن إسحاق)([1])، وأيضا قصة الإسراء والمعراج التي اعتمد فيها على روايات غربية لكُتاب غربيين يعتمدون في كتاباتهم عن الإسلام على مصادر غير موثقة فيصف جبريل عليه السلام بأوصاف لم ترد في كتب السنة ناقلا إلى القصة من نسج خيال الغربيين ما لا يتفق مع ماورد منها صحيحا .([2])

ومن يقرأ ما كتبه د/ هيكل في الإسراء والمعراج يجده يحشد ما بين يديه من أخبارعن تلك الحادثة فيروي ما قاله أحد كتاب الغرب ، ويتبعه بما أورده ابن هشام في الحادثة ذاتها ، ويناقش ما قيل بشأن الإسراء والمعراج وهل حدث بالروح فقط ؟أم بالروح والجسد ؟ دون أن يرجح أحد الروايات على غيرها ، ويترك الحكم للقارئ ؛ فهو على يقين بدوره ووظيفته أنه يؤرخ لحياته ﷺ فيجمع الأخبار والروايات من المصادر والوثائق ويسوقها بين يدي القارئ([3])

كما كان يعتمد على بعض الروايات الضعيفة الواردة لدى كُتاب السّير منها أنه (يجعل اللقاء الأول بين الروح القدس وبين الرسول صلوات الله وسلامه عليه نوما ، واستند أبو المنهج العلمي الصحيح الحديث إلى رواية ضعيفة عند ابن إسحاق ولم يذكر جبريل وراوغ وموه في الهامش ، فالحديث مرسل أرسله عبيد بن عمير ولم يعتمده أحد من علماء الإسلام عبر العصور فيما نعلم ولهذا بقيت هذه الرواية خافتة هامدة في مكانها)([4])

---

١) مصادر السيرة النبوية وتقويمها ص ٢٤٦

٢) راجع حياة محمد – ص ١٩٠،١٩١

٣) راجع حياة محمد الفصل الثامن ص٢٠٢ وما بعدها

٤)مصادر السيرة النبوية وتقويمها ص١٨٩

أما الخامس : وأتفق مع د/ حمادة فيه بشأن الأحكام الجازمة التي أطلقها د/هيكل في كتاب (حياة محمد) وهي عيب في تطبيق المنهج التاريخي من ذلك قوله: (إن أول كتب السيرة إنما كتب بعد وفاة النبي بمائة سنة أو أكثر)[١] ، فيقول معقباً على هذا الحكم الجازم الخاطئ: (الذي يعتمد سيرة ابن هشام ومعلوم أن سيرة ابن هشام تهذيب لسيرة ابن إسحاق ومحمد بن إسحاق توفي ١٥١هـ فكيف يغضي على هذه الحقيقة ويتجاهلها ؟ لا أدري حتى إن ابن هشام الذي هذب هذه السيرة توفي سنة ٢١٨هـ أو ٢١٣هـ)[٢].

وأراه قاسيًا شديد القسوة عندما يضرب بصنيع الدكتور هيكل في كتاب"حياة محمد "عرض الحائط ، ويهدم هذا الجهد المبذول بجرة قلم. هذه الإضافة التي لا ينكرها أحد في مجال الدراسات النبوية ، والأدبية وهذه الريادة التي رادها في ترسيخ ، وتثبيت دعائم منهج تاريخي يجمع بين الأصالة والمعاصرة فيقول: (وعلي أية حال فقد اعتدل بعض الشيء في النصف الثاني من الكتاب ولكن اعتداله هذا لا يجعل كتابه مرجعا معتمدا ولا معتبرا لمن يريد معرفة شيء من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان الكتاب قد أدى دورا تاريخيا معينا ، فإن تحليلاته قد تعداها مد العلم والثقافة أيضا ومما تقدم من النصوص القليلة التي نقلناها منه نقول بكل اطمئنان :إن الترويج لهذا الكتاب وأمثاله خيانة علمية ، واستخفاف بالمعرفة الإسلامية وبالقراء والمثقفين ، فليتق الله امرؤ عرف ربه)[٣].

وهذا تجني على الكتاب وصاحبه ، فلم يصل الأمر إلى هذا الحد فالكتاب له قيمته ، وصاحبه له فكره الذي يحترم ويؤخذ في الاعتبار مهما كان حجم الخلاف .(٤)

---

(١) حياة محمد ، ص٥٤.

(٢) مصادر السيرة النبوية وتقويمها ، ص١٥٧.

(٣) المرجع السابق ص ١٥٧.

٤) راجع ما كتبه الشيخ مصطفى المراغي عن الكتاب ودفاعه عنه ، وعما فيه من أفكار مطروحة في التعريف بالكتاب في مقالته التي صدَّر بها كتاب " حياة محمد " فيكفي د/ هيكل ما كتبه الشيخ عن هذا الكتاب الما تع النافع .

المبحث الثاني : المنهج التحليلي (عبقرية محمد أنموذجا)

لا شك أن في وصف محمد ﷺ بالعبقرية[١] من قبل العقاد معنى يقصده ؛ ذلك أن العبقرية (قدرة عقلية ، وإبداعية استثنائية من مستوى رفيع تُترجم عملياً على شكل إنجاز فذ ، وأصيل يترك بصمات عميقة كبيرة لمعرفة الإنسان ، وحضارته)[٢] فالعبقري (تعبير يستخدم لوصف الفرد الذي يمتلك قدرة عقلية وإبداعية استثنائية ، ويتوصل إلى نتاجات إبداعية غزيرة وغير مسبوقة ، وممتدة زمنياً وذات قيمة للمجتمع في أحد مجالات الحياة الإنسانية، أو يُظهر مهارة فائقة فريدة في أحد المجالات الفنية الأدائية والبصرية ، والتقنية)[٣].

ولا شك أن العبقرية بهذا المعنى تنطبق تماماً على شخص الرسول – ﷺ – فهو فذ له إنجاز وبصمات عميقة الأثر .كان أثرها وسيظل مع وجود البشرية، فالعبقرية صفة تضاف إلى صفاته الكثيرة ، والمتنوعة وترفع من شأنه بلا شك، ولا تقلل من مكانته مع اتصاف غيره بها. فهو بشر في المقام الأول له صفات البشر إلا أنه بشر مختار ، ومصطفى من قبل الحق .

وفي وصف الرسول ﷺ بالعبقرية جدل واسعا بين النقاد والمفكرين ممن رأى في إطلاق هذه الصفة عليه صلى الله عليه وسلم مساواة بغيره ممن ترجم لهم العقاد في عبقرياته فيرى بعضهم أن رسول الله ليس بحاجة إلى تلك الصفة ؛ لأنه موصوف بأفضل منها (النبوة والرسالة) بالإضافة إلى أن التركيز على هذا الجانب فيه ﷺ استغله بعض المستشرقين وأعداء الإسلام ؛ لينسبوا نجاحه في تعليم البشر وهدايتهم إلى ذكائه فيغفلوا جانب الوحي الذي هو

---

(١) عبقر: موضع بالبادية كثير الجن فيما زعموا ، وأصل العبقري صفة لكل ما بولغ في وصفه ، وعبقري القوم: سيدهم. لسان العرب ، مادة (ع. ب. ق. ر).

(٢) أساليب الكشف عن الموهوبين ورعايتهم. تأليف د – فتحي جروان ، ط– دار الفكر ، ط الثانية ٢٠٠٨م – ١٤٢٨هـ عمان الأردن ص ٤١٤.

(٣) المرجع السابق ص٤١٤.

السبب الحقيقي لهداية البشر ونصرتهم ، وهذا ما أشار إليه الشيخ الشعراوي عندما تحدث إلى الأستاذ العقاد واعترض على وصف الرسول بالعبقرية ؛ لأن أميته ﷺ شرف له وتعني أنه لا يأخذ من ثقافات البشر ، وإنما من الله سبحانه وحده يأخذ رسالته الخالدة .([1])

وهذا رأي له وجاهته ، فكفاه ﷺ ما وصفه به الله –ﷻ– في القرآن الكريم ، وما ميزه به عن غيره من البشر ، ولكن لابد أن نأخذ في الاعتبار ما أراده الأستاذ العقاد من كتابه " عبقرية محمد " والهدف الذي من أجله كان تأليف الكتاب ، فهو لايصنع سيرة تضاف إلى غيرها من السير التي تحدثت عنه ﷺ، وإنما أراد أن يثبت من خلال ما ساقه من أخبار ومواقف عن الرسول الكريم كيف كان متميزا في تلك الجوانب التي عرضها دون غيرها و هي مثار نقد من أعداء الإسلام ، وكيف استطاع أن يغير ما يعتبره أعداء الإسلام سلبيات في حقه إلى ايجابيات تحسب له ﷺ.

وللأستاذ العقاد وجهته في تأليف «عبقرية محمد» تلك الوجهة جعلته يخط لنفسه طريقا يسلكه له معالمه الواضحة ، وخصائصه المميزة أضفى عليه كثيرًا من شخصه ، وعقله ، وفكره الذي طُبع على الجدل والمناقشة ، والأخذ ، والرد، والتحليل ، والتدقيق ثم الاستنباط ، والوصول إلى نتائج حتمية أوجدتها أو فرضتها طبيعة الفروض الجدلية السابقة عليها. فإذا به يؤلف كتابًا عن محمد ﷺ له طبيعة تختلف عن باقي المؤلفات التي سلكت المسلك نفسه ، وقصدت الطريق ذاته .

وقد أفصح العقاد في مقدمة العبقرية عن السبب وراء تأليفه لهذا الكتاب. عندما ذكر ما حدث من مناظرة كلامية بينه ، وبين أحد الحاضرين هذا الذي

---

١) لمزيد من التفصيل انظر مقالاعلى موقع الشبكة العنكبوتية– منتديات صيد الفوائد بعنوان " عبقريات العقاد ليست انتصارا للإسلام بقلم محمد جلال القصاص ، ومقال بعنوان " لماذا وقع خلاف بين الشيخ الشعراوي والعقاد حول كتابه له عن النبي" بقلم هاني ضوة بمجلة مصراوي النسخة الالكترونية عدد الخميس ٢ مارس ٢٠١٧

تجرأ بلسانه ، وكلامه على شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال ما فحواه: إن بطولة محمد إنما هي سيف ودماء !! فتصدى للرد عليه الأستاذ العقاد حتى خرج من المجلس ، وطلب الحضور من العقاد أن يترجم للرسول ﷺ في كتاب يرد فيه على هؤلاء الخصوم ، ويبين فيه طبيعة شخص الرسول، وكونه ينأى عما اتهم به تمامًا. وليت كل فرد منا عقاد ، فمازال الرسول الكريم يتعرض لتلك الدعاوى الظالمة على ألسنة المغرضين ، والحاقدين .الأمر الذي يُلزم كل فرد منا أن يكون عقادًا في شخصه ، وفكره ينافح ، ويدافع عن صاحب الخلق الكريم ، فالكتاب (تقدير وتقويم لعبقرية محمد الفريدة ذلك الرجل العظيم في خُلقه وأوصافه ، العظيم في أقواله ، العظيم في أفعاله ، العظيم في كل أخلاقه ، ومعاملاته ، و مواقفه البطولية ، ولا عجب فهو أفضل الخلق ، اصطفاه الله _سبحانه وتعالى_ من بين خلقه وخصه بخصائص ومواهب لم يعطها لأحد غيره)[1].

من هنا أصبحت هناك علاقة وثيقة بين الغرض الذي من أجله ألف العقاد "عبقرية محمد "، والمنهج الذي اتبعه في بيان فصوله ، ومواده وهو (المنهج التحليلي) ذلك ؛ لأنه لا يريد أن يؤرخ أو يكتب سيرة ، وإنما أراد أن يدافع عن شخص الرسول. العبقري في كل صفاته ، وسجاياه ، وبيان مواطن تلك العبقرية التي تلفح وجه الخصوم . ولا يكون ذلك إلا عن طريق الوقوف عند حوادث بعينها ؛ ليتحقق المراد من تأليف الكتاب ، والغاية المرجوة منه. ولهذا كانت أكثر الجوانب تفصيلاً في الكتاب الحديث عن عبقريته ﷺ كزوج ، وعبقريته كعسكري ذلك لاتصال الحديث عن المرأة والسيف اللذين هما من أشد مواطن الطعن في حياة الرسول ﷺ.

(١) العقاد وتراثه الإسلامي – حمد بن نايف الشمري – مطبعة التقدم – القاهرة – ص٩٥.

وقد صرح الأستاذ العقاد في مقدمة العبقرية أنه لم يؤلف هذا الكتاب ليكون (سيرة نبوية جديدة تضاف إلي السير العربية ، والإفرنجية التي حفلت بها المكتبة المحمدية حتى الآن ، وليس الكتاب شرحًا للإسلام أو لبعض أحكامه ، أو دفاعاً عنه ، أو مجادلة لخصومه فهذه أغراض مستوفاة في مواطن شتى، إنما الكتاب تقدير لعبقرية محمد بالمقدار الذي يدين به كل إنسان ولا يدين به المسلم وكفى وبالحق الذي يبث له الحب في قلب كل إنسان ، وليس في قلب كل مسلم وكفى)[١].

ويعود في نهاية الكتاب ويؤكد على ما سبق توضيحه في المقدمة من الغرض الرئيس والمنهج المتبع في ثنايا صفحات الكتاب ، كأنه بذلك يريد أن يربط بين فصول الكتاب من أوله إلى آخره برباط واحد ، وأن يؤكد على أنه لا زال يمسك بأهداب منهجه في الكتاب منذ البداية وحتى النهاية ، فعندما أوشك على الانتهاء من فصول عبقريته قال: (ولقد علم القارئ من فصولنا السابقة أننا لم نكتب هذا الكتاب لشرح الأصول الإسلامية وتفصيل محاسن الدولة المحمدية ، فذلك غرض لا تتسع له هذه الفصول ، وإنما نقصد بهذه الفصول إلي غرض قدمناه على كل غرض في موضوعه وهو بيان البواعث النفسية التي توحي إلي النبي أعماله ، ومعاملاته ولاشك في مطابقة هذه البواعث لكل أمر من أوامر الدين وكل نهي من نواهيه)[٢].

وهو بذلك يضع النقاط فوق الحروف ولا يدع مجالا لمجتهد أن يبحث في الغرض من تأليف «عبقرية محمد» والمنهج المتبع فيه فالكتاب ليس (من النوع الذي يمكن أن يضاف إلي رصيد السير في أرفف المكتبة العربية الحافلة بأنماط هائلة من التأليف في هذا المجال ، ولكننا كذلك على مخالفة مع العقاد في قضية جعل هذا الكتاب ليس سوي تقدير لعبقرية محمد مما يوحى بأن

(١) عبقرية محمد ، العقاد ص٥.
(٢) عبقرية محمد ، ص١٠٢،١٠٣.

قضية الترجمة فيه غير واردة على الإطلاق لأننا نؤمن إيمانا عميقا بأن هذا الكتاب كغيره من عبقريات العقاد يستوي تماما على قاعدة التراجم التحليلية التي إن صرفت اهتمامها الغائر عن استيعاب كل الحجم الوجودي المعاش للبطل فهي لم تصرف اهتماماتها الأكثر تغورا على استيعاب كل الحجم الإنساني لهذا البطل ، وغير خاف هنا أن أي كاتب لا يمكن أن يصل إلى هذا التجسيد الإنساني لبطله إلا من خلال كم معين من الإيغال في حياته ووقائع وجوده)[1] وبهذه الصورة في التطبيق وبهذا الغرض من الكتاب يعد الأستاذ العقاد رائد المنهج التحليلي بلا منازع. فهو لا يطبق المنهج التحليلي من حيث القضايا والمصطلحات ، وإنما هو ضوء كاشف يعمل الكاتب من خلاله ، ويتحسس طريقه على هداه. (لقد كان في عمله هذا أشبه بفنان فكر في صنع تمثال للعظمة والعظماء وحرص الحرص كله على أن يأتي التمثال مطابقاً للواقع بقدر طاقة ذلك الفنان الصانع فما زال يضع حجرا على حجر ويضم لبنة إلى أخرى وهو حين يصنع ذلك يصاحبه ذهن متوقد وبصيرة نافذة وعقل حصيف وبيده ريشة الفنان القدير الموهوب الذي يقدر كل شيء تقديرًا سليمًا ويخرج للناس تمثالاً)[2].

وأصدق دليل على أنه قصد التشكيل التحليلي وأراد من خلاله أن يتحدث عن شخص الرسول ﷺ أننا نجد أنفسنا أمام كاتب اختار من كل الأخبار المروية أخبارا بعينها تكشف تمام المكاشفة عن ذات الشخص الذي يترجم له ، وهو كذلك يحلل ويناقش ، وينقد ، ويقبل ، ويرفض فـ (العقاد جمع عن بطله كل ما يتصل به قبل أن يمارس حركة الإبداع ، ولكنه في لحظة الكتابة لا يضع كل هذا المجموع على صفحات الكتاب ؛ لأن كمًا هائلًا من هذا المجموع قد لا يعنيه ، إنه يكتفي منه بأنه أعطاه صورة بطله على النحو الذي

(١) التراجم الغيرية في الأدب العربي الحديث أ.د- محمد العزب ص٢٠٣.
(٢) أصول البحث الأدبي ومناهجه د- السيد تقي الدين ص١٠٩،١١٠.

يراه ويرضيه ، فإذا مارس الكتابة انتقي من كل هذا الحشد الإخباري نوع الوقائع التي تعينه على إبراز ملامح الشخصية ، ورسم مسيرة حياتها المادية ، والروحية إلى مدى بعيد)[١] ، ويضيف دكتور حمد الشمرى سببا آخر كان من أجله تأليف «عبقرية محمد» عندما يقول: إنه أراد أن يضع أمام أعين الشباب القدوة الحقيقية التي يجب أن يحتذوا بها ، وأن يصرف أعينهم عن زيف الحضارات الغربية ، ونماذجها التافهة ، كما يريد أن يدحر أولئك الذين هانت عليهم أنفسهم وتأثروا بهذه الأصوات ، والأبواق الخادعة لدى الغربيين الذين يقصدون هدم تلك الرموز العربية في تاريخنا ، وتراثنا حتى يهدم التاريخ والتراث كله[٢]. إذًا ليست كل الأحداثٌ تطرح أو تُناقش ، وإنما جوانب بعينها ، وقسمات خاصة ، وملامح مميزة يستطيع العقاد من خلالها البرهان على جوانب ومكامن العبقرية في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم . هذا هو موضوع الدراسة والبحث ، ومن أجله كان التحليل وبه يتحقق التناسب بين الغرض من التأليف والمادة المجموعة من أجل هذا الغرض واستيفاء جوانبه فالعقاد (يختار جوانب العظمة في شخصياته العبقرية ، ويخضعها للمناقشات العقلية ، والاستدلالات المنطقية ، والتفسيرات المختلفة التي يستند فيها على بعض الأحداث والوقائع والأخبار ، والأقوال التي ترجح وجهة نظره وتؤيدها وكلها آراء يحاول تأكيدها بقدرته العقلية المعروفة لتصبح آخر الأمر متسقة مع المقدمات التي مزجها في ذهنه واختار لها ما يناسبها من الأمثلة والشواهد)[٣] هذا التركيز على جانب العبقرية جعل العقاد لا يلتفت إلى جوانب أخرى في الشخصية لها مدلولات أخرى ، وتعكس انطباعات غير ما تعكسه تلك الأحداث ، والأخبار التي ترتبط بوصف صاحبها بالعبقري ، أو تؤدي لا

(١) التراجم الغيرية في الأدب العربي الحديث ، ص٢٤٧.
(٢) العقاد وتراثه الإسلامي ، ص٣٤٥ – بتصرف شديد.
(٣) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث – د. يحيي إبراهيم عبد الدايم –ط – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان ، ص٢٤٣.

محالة إلى أن يتسم صاحبها بالعبقرية وتلك صورة فريدة ، ومنظور مختلف جعل من كتاب (عبقرية محمد) طابعًا منفردًا عن غيره من المؤلفات التي قامت على الموضوع نفسه، وما كان ذلك إلا من أجل المنهج الذي اتبعه العقاد في كتابه فجعله مميزا في بابه فريدا بين أقرانه.

لعل هذا ما دفع الأستاذ توفيق الحكيم أن يقول: (فمن الفصل الأول أدركت أن الأستاذ العقاد لديه ما يقول وأن الكلام الذي عنده يرغمنا على أن نصغي إليه ، وأن كل ما عرف من قبل عن النبي محمد ﷺ لن يغنينا عما عند العقاد ؛ لأن العقاد قد درس ، وفكر ، واستنتج لنفسه ، ثم صنع للنبي ﷺ صورة قلمية لا يمكن أن يري نظيرها على هذا التمام في صفحات مثل صفحات كتابه المتوسط الحجم ، إنه لم يكتب سيرة كما فعل الذين سبقوه ، ولم يرو لنا قصة ولم يسرد تاريخا ، ولكنه رسم ملامح وخط قسمات أبرزت ذلك الوجه الشريف الجليل .. على أن الحري أن الذي يجب أن نلتفت إليه هو الطريقة التي جرى عليها العقاد في تحقيق غرضه ، فهو لم يكتف باستخراج الوقائع من بطون كتب السير ، لأنه يعلم أن هذه الوقائع قد أصبحت معروفة لأكثر الناس.... فنراه قد استخدم هذه الوقائع استخداما آخرا جديدا ،واستنطقها معاني أخرى طريفة ، ولم يرض أن يسير خلفها لتقوده كما فعل أكثر الرواة ، بل تناول هو زمامها وقادها بيدين من المنطق السليم ، والتفكير المستقيم في طريق كلها ضوء ونور)[1] ونفس التقدير لصنيع العقاد ، ومنهجه التحليلي تجده لدى الدكتورمحمد رجب البيومي الذي يشيد بالمنهج الذي اتبعه العقاد في (عبقرية محمد) فجعل مؤلفه فريدا في بابه عندما قال: (فقد أكون مبالغا في تقديري لكتاب أعتقد أنه فريد في بابه ، وأن موضوعه القديم المشتهر قد بدا جديدا في كل سطر من سطوره ، وما هكذا نظائره التي كتبها هيكل وطه

(١) مجلة الأزهر – عدد ربيع الأول ١٤٣٠هـ – مارس ٢٠٠٩ م ، عن مجلة الثقافة العدد ١٧٥ – ٥ مايو ١٩٤٢ م.

حسين وتوفيق الحكيم وفريد وجدي فكل كاتب من هؤلاء يعجبك بتفوقه في منحاه الكتابي ، ولكنه لا يدهشك هكذا دهشة بالغة تميل بك إلى أن تتهم نفسك ، وتضطر إلى مراجعة ما كتبه عنه المفكرون حين قرأوه في أوائل الأربعينات)[1].

ولك أن تقف على كل فكرة يطرحها العقاد في «عبقرية محمد» لتتبين دليل ذلك فعندما يتحدث عن عبقريته ﷺ كداعٍ [2] يبدأ ببيان الشروط التي يجب توافرها في نجاح الرسالة أو الدعوة كفصاحة اللسان واللغة، والقدرة على تأليف القلوب ، وجمع الثقة والإيمان بالدعوة ، والقدرة البالغة على نجاحها. ثم يبدأ ويفصل القول في فصاحة اللسان ، واللغة ، ويدرسها من كل الجوانب ، وعلى كل الوجوه ليثبت من خلال تلك الجوانب ، وهذه الوجوه كيف كان ﷺ فصيحا بكل أدوات الفصاحة ، وجميع مفرداتها ، فقد يكون اللسان فصيحا إلا أن هيئة النطق بالكلام وموضوعه غير فصيحة ، أو يكون الصوت غير محبوب. كل هذه العيوب لم تكن فيه ﷺ فقد كانت لغته فصيحة ، وهيئة نطقه للكلام فصيحة ، ولسانه فصيح ، وصوته محبوب مؤثر بدليل ما قالته السيدة عائشة – رضي الله عنها – : (كان النبي ﷺ لا يسرد الكلام كسردكم هذا ، ولكن كان إذا تكلم تكلم فصلا يبينه يحفظه من سمعه)[3].

فهو لا يدرس الفصاحة من حيث كونها فصاحة لسان وفصاحة لغة ، وفصاحة نطق ، وحسن صوت فأخضع بذلك الفصاحة لمنظار التحليل الدقيق فناقش ، وحلل ، وأثبت ، وأكد في النهاية ما يقصده وما يبتغيه. وعن تأليف

(١) مجلة الأزهر عدد ربيع أول ١٤٣٠ هـ.

(٢) راجع عبقرية محمد ، ص١٥ وما بعدها.

(٣) رواه البخاري (٣٣٧٥) – ط. دار ابن كثير – دمشق – ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م ، ومسلم (ج١٦ ، ص٥٣ ، صحيح مسلم بشرح النووي ط الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية) – مختصرًا ، والبيهقي في السنن الكبرى (٥٨٥٤) ، واللفظ له – ط. دار الكتب العلمية – بيروت – ط. الثالثة – ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٣م.

القلوب الذي هو شرط لنجاح الدعوة قال: إنه ﷺ كان لديه قبول عند كل من يراه من الضعفاء ، والأقوياء . سواء السادة أو العبيد سواسية من العدو أو الصديق صنوا ، فقد فضله فتى مستعبد على أبيه وأسرته وهو زيد بن حارثة ، وفضله أقوياء ، وسادة أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وخالد وأبي عبيدة رضي الله عنهم .

وبنفس قوة التحليل ، والمناقشة يتناول الأستاذ العقاد جوانب هامة في حياته ﷺ فتحدث عنه زوجًا. هذا الجانب الذي اجتمعت فيه صورة النبي ﷺ وصورة الإنسان فظهرت العبقرية ووضحت في أسمي صورها ، وأبرز معالمها ، وأوضح صفاتها ؛ لأن الحديث عنه صلى الله عليه وسلم كزوج[1] يتصل اتصالا وثيقا بالحديث عن المرأة فقد استهل العقاد حديثه عن المرأة ، ومكانتها قبل الإسلام ، ومنزلتها عبر العصور التاريخية القديمة ، ثم مكانتها بعد مجيء الإسلام ، وما أعطاه لها من منزلة عالية رفيعة صانت لها كرامتها ، وحافظت على سجيتها ، وخاطبتها على قدر طبيعتها وفطرتها التي فطرها الله عليها ، ثم انتقل إلى الحديث عن معاملته ﷺ لزوجاته باعتبار أنهن نساء لهن نفس حقوق النساء الأخريات ، وعلى اعتبار أنه رجل عليه نفس واجبات أي رجل آخر فصارت نساؤه قدوة لكل النساء وصار صلى الله عليه وسلم مثلا لكل الرجال ، ويترك العقاد كل الأخبار وكل الأحداث التي وردت عن النبي مع زوجاته واتخذ من حادثة واحدة فقط بيان لجانب العبقرية باعتباره زوج ، وهي حادثة الإفك المعروفة ، والمشهورة في كتب السيرة. ويعلن عن السبب الذي من أجله اختار تلك الحادثة بعينها ؛ لأن الخلق الطيب ، والطبع الكريم يظهر أكثر في حالة الغضب منه في حالة الرضا. ذلك أن الثانية يقدر عليها كل إنسان ، والأولي لا يقدر عليها إلا من وجدت فيه سجايا خاصة ، وطبائع فريدة وهو ﷺ أولى بتلك الطبائع وأخص بتلك السجايا عن غيره.

(١) راجع عبقرية محمد ، ص٧٣وما بعدها.

ثم يناقش مسألة تعدد الزوجات ويتخذ من نفسه إماما ينافح ويدافع عن الرسول ﷺ في وجه الخصوم والأعداء الحاقدين أولئك الذين اتخذوا من تعدد زوجاته سببا للطعن في خلقه الكريم فرموه بما لايليق به ، وبما هو منه براء. فبدأ بهدم الدعوة من منبتها بالقياس على حالة عيسي- عليه السلام- الذي لم يتزوج قط ، ومع ذلك لم يتهم بضعف الحالة الجنسية لديه ، فلماذا يتهم محمد ﷺ بفرط الجنسية لتعدد زوجاته ؟

ثم يناقش المسألة رويدا عندما يعرض لملابسات كل زيجة من زيجات الرسول الكريم ، ومن خلالها ينتهي إلى أن السبب فيها لم يكن كما تصوره أو توهمه أولئك المغرضون ، وأنه لم يكن كذلك ، بل هو أبعد ما يكون عنه فصفاته ، وخلقه ، وسجاياه تنافي ما اتهموه به تماما.

ثم يستطرد من هذه المناقشة إلى مناقشة ، وتحليل الوجهة الخلقية من التعدد عند كل رجل وأنه ربما يكون في هذا التعدد رحمة لكل من الرجل والمرأة لحالات واعتبارات إنسانية ، واجتماعية شرحها ، وفصلها الأستاذ العقاد تفصيلا ، وتحليلا دقيقا.

وينهي الفصل بالحديث عن عقوبة الزوجات مبينًا أن هذه العقوبة التي سنها الشرع ، وأقرها القرآن الكريم ليس فيها أدنى مهانة أو مذلة للمرأة ؛ لأنه تعالى خلق ويعلم من خلق ، ويعلم ما يصلح من شأن المرأة ، وما لا يصلح لها ، وهو جل شأنه لا يريد لها إلا كل خير مناقشا من خلال حديثه التدرج الذي أقره الإسلام في عقوبة المرأة وأن أقسى درجاته (هجر الفراش) الذي يمس غرور المرأة من قريب ؛ لذا كان أبلغ العقوبات التي تقع عليها.

هكذا ناقش العقاد وحلل أدق جانب من جوانب شخصه الكريم ودافع في وجه الخصوم ، والمعتدين بكل قوة (ولقد وهب الله العقاد قدرة على الإقناع ، والتأثير إذ هو ليس ناقلا للمعاني فحسب بل هو عالم مفكر ، فيلسوف يعتمد على فكره الثاقب ، وعقله الواسع وذكائه الخارق ، ونظره الحاد ، فهو يسوق المعاني سياقا منطقيا ويحلل ، وينقد ، ويبرر رأيه ويدافع عنه بقدرته الفائقة ،

وبما يأتي به من أجوبة مؤثرة ومسكتة ، وحجج قوية وبراهين قاطعة نقلية ، وعقلية بما أعطاه الله من قدرة فائقة على البحث والتحليل ، والاستنتاج)[١]

كما يتضح التشكيل التحليلي أيضا عندما يذكر العقاد قصة موت إبراهيم بن محمد ﷺ وكيف يواجه النبي الكريم هذه النازلة ، واستطاع العقاد أن يخلص من الروايات التي وردت في هذه القصة ، إلى تأصل النبي لقضية الحزن والفرح ، وكيف أصل بها لقضية الأبوة ، والبنوة ، ولقضية علاقاتنا بالأقدار .

نفس التشكيل التحليلي يبهر الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي عندما يقرأ ما كتبه العقاد عن "صلح الحديبية" وما ناقشه وحلله من أحداث تتعلق بهذا الصلح فإذا به يعلق على تحليل العقاد قائلا: (ولكن أحدا لم يقل ما قاله العقاد حين استخرج من "صلح الحديبية" مبدأ ونهاية معاني طريفة ، لم تعرف قبل ظهورعبقرية محمد..... وهذا نمط من البيان الحي المؤثر بصدقه وصراحته ، ووضوحه تأثير الحق الجلي المتألق الشعاع ، وإذا كان بعض ما يصورمنهج العقاد في التحليل والتعليل فعلى الذين خالفوه أن يتأملوا ما كتب من جديد ، ليضعوه موضعه الصحيح)[٢].

ونفس الدهشة من منهج العقاد في العبقرية تلقاها عند الأستاذ أحمد حسن الزيات الذي أعجب بطريقة تناول الأستاذ العقاد لجوانب هامة في شخص النبي الكريم هذا التناول جعله رائدا في بابه إماما في موطنه حيث قال: (صورة محمد في نفسه هي الناحية التي طوف حولها الرواد ولم يدخلوا ، وحوم فوقها الرواد ولم ينزلوا ، وهى التي قدرتها على التخمين في خطة العقاد ثم قرأتها على اليقين في عبقرية محمد... ذلك لأن العقاد كاتب مؤمن بالعقل والرجولة ، فإذا درسته أو قرأته على ضوء هذا الإيمان تكشف لك عن

(١) العقاد وتراثه الإسلامي ، د. حمد الشمرى ص٣٤٨.
(٢) مجلة الأزهر عدد جمادي الأولي ١٤٣٠ هـ مايو – ٢٠٠٩ م.

منطق فحل لا يتناقض في الرأي ولا يتعثر في الأداء.... فإذا كتب عن محمد فإنما يكتب بوحي هذا الإيمان عن عبقريته ... والحق الذي لا تجوُّز فيه أن كتاب "عبقرية محمد "هو التفسير الملهم المحكم لقول الله تعالى لنبيه الكريم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [1]، ولا يدهشنك أن أقول: إن شهادة الله لرسوله بعظمة الخُلق ظلت مجهولة الغور والمدى ، والدلالة في التفسير والتاريخ ، حتى جاء العقاد فصورها بأبعادها ، وحدودها ، وألوانها ، وسماتها كأنطق ما يكون المثال ، وأصدق ما تكون الحجة)[٢] .

هذا وإن أدهش تناول العقاد لشخص النبي ﷺ وطريقة العرض ، والمناقشة ، والتحليل ، واختيار الأحداث أقول: وإن أدهش بعض النقاد فإنه كذلك لم يسلم من توجيه بعض الانتقادات إليه [3]فالنقد مهمته ذكر الجيد وكذا الردئ ، وليس أحدهما فقط والكاتب يتقبل هذا وذاك ، وهى طبيعة في الأعمال الأدبية ، وسجية في كاتبها ، وقد أوجز الدكتور العزب بعض تلك الانتقادات التي وجهت إلى (عبقرية محمد) بما يلي:

(أ) خطل نظرة العقاد إلي طبيعة البطولة والأبطال.

(ب) عدم اقتداره على فهم طبيعة التراجم والسير.

(ج) إغفاله عنصر الامتداد في الزمان والمكان.

(د) إهداره للمنهج الموضوعي تعلقا بالمنهج الأخلاقي[٤].

أضف إلى ذلك ما قاله الدكتور إحسان عباس من أن العقاد لا يترجم إلا للعباقرة. وأنه يخلع على أبطاله نوعا من القداسة تكاد تخرجهم من دائرة

---

١) سورة القلم آية ٤

(٢) مجلة الأزهر عدد ربيع أول ١٤٣٠هـ ، نقلًا عن مجلة الرسالة العدد٤٦٢ – مايو١٩٤٢م.

٣) راجع كتاب: نقد آراء ومرويات العلماء والمؤرخين على ضوء العبقريات – صالح بن سعد اللحيدان – ط– دار راجح للطباعة والنشر – دمشق .

(٤) راجع التراجم الغيرية ص ٢٥٦ وما بعدها.

البشرية فيوضح ذلك بقوله: (وقد حد العقاد من حريته في الكتابة ثلاث مرات: مرة حين افترض القداسة فيمن يترجم لهم ، وحاول أن يبرز ما يحسبه الناس خطأ ، ومرة أخرى حين اختار أن يتحدث عن العباقرة لا عن الناس العاديين ، وثالثة حين اختار للكتابة شخصيات لايملك الشواهد الدقيقة عنها فإذا وجدها ، وجد الاضطراب الكثير. ونجم عن هذا كله أنه لم يكتب سيرة ، وإنما كتب فصولا بعضها يتميز بالنظر الدقيق النافذ ، وبعضها يعتمد على قوة الذكاء في الفحص ، والتبرير كما هي الحال في كتابيه "عبقرية محمد" ،و"عبقرية عمر" ، ولكن العاطفة الدينية قد حصرته في دائرة ضيقة)[1].

كما ينقد الدكتور إحسان عباس (عبقرية محمد) للعقاد من جهة أنه يترجم دون أن يملك الشواهد الدقيقة عمن يتحدث عنه ، وأنه يكتفي بمشهور الروايات (فكم من صور وشخصيات شوهتها الروايات المشهورة ، ومن خطر هذه الطريقة أن يستعملها من لم يؤت ذكاء العقاد ، وقوة سفسطائيته ، وشيئا من فهمه النفسي فتصبح كتابة السيرة دجلا يزور به التاريخ ،وتنحدر معه مكانة الحقيقة الموضوعية)[2].

ولم يكن مطلوبا من العقاد أن يلم بكل الأحداث ، والروايات التي تحوم حول الشخصية التي يتحدث عنها ؛ لأن منهجه قائم على التحليل الذي يقوم في جوهره على الاستبصار وليس على الاستقصاء ، وقد نبه العقاد على ذلك مرارا وتكرارا فهو لا يصنع سيرة ولايسرد أحداثا وإنما يقف عند أمور بعينها لأن لها مدلولاتها الخاصة لديه وحسب ما يقتضيه منهجه.

أما أنه لا يملك من الشواهد ما يؤهله لأن يترجم لشخص النبي فهذا ما نرفضه أيضًا ؛ لأنه قرأ ، وفحص ، وانتقى ، واختار ما يلزمه وما يخدم به منهجه

(١) فن السيرة ص ٥٨.

(٢) فن السيرة ص٦٢.

وغرضه من الترجمة وليس معنى اقتصاره على روايات أو أحداث محددة أنه يجهل باقي جوانب ، وخطوط ، وقسمات الشخصية التي يتحدث عنها.

أما أن العقاد ليس لديه القدرة على فهم طبيعة التراجم[١] والسير كما اتهمه الدكتور إحسان عباس ، فإن هذا الزعم مردود ذلك (أن العقاد لم يكتب تراجم من اللون المتعارف عليه في الأدب العربي... ولكن الزعم بأن العقاد لم يكتب تراجم على الإطلاق ، يشكل أفدح الأخطاء النقدية بلا تبرير ؛ لأن كون العقاد لا يكتب تراجم على النحو المتعارف لا يمكن أن يصادر قضية أنه يكتب تراجم.. إن العقاد يكتب تراجمه في إطار التشكيل التحليلي وهو إطار ابتدعه العقاد في الأدب العربي الحديث ، ومن هنا كان مفارقا في طبيعته ، وفي منظوره ، وفي رؤيته ، هذه الرؤية التي ترى في كتابة التراجم صورة إلى جوار صورة ، ومشهد إلى جوار مشهد حتى تتكامل الترجمة وتكتمل)[٢] ، هكذا ينبغي أن تفهم (عبقرية محمد) وبهذا الشكل ، والتصور يجب أن تُنقد. إنها ترجمة من نوع خاص في إطار فريد ، ومنهج مختلف ، ومن الظلم أن ينظر إليها كسائر التراجم التي تقوم على نفس الموضوع وتدور في خضم تلك الأحداث.

ويتهم الدكتور حسين فوزي النجار طريقة العقاد بأنها تصور العظمة في الإنسان ، ولا تصور الإنسان في عظمته. أو يقتنص في تراجمه مكامن البطولة ومناطات العبقرية ، ولا يستقطب الحياة ككل .. أويرى في بطله عقلا عبقريا لا يتطرق إليه الضعف الإنساني المفترض[٣].

(إن هؤلاء الذين يرون في العقاد كاتبا يجترح كل هذه الأخطاء الموضوعية يبالغون في هذا الصدد إلى مدى بعيد.. لأن السؤال الذي يرد هنا على الفور: متى صوَّر العقاد العظمة في بطله ، ولم يصور بطله في عظمته ؟ إن كثيرًا

(١) راجع فن السيرة ص٥٩.
(٢) التراجم الغيرية ص٢٦٠.
(٣) المرجع السابق ص ٢٥٨

من النقاد يأخذون على العقاد أنه ينحى بلا هوادة على تصور أبطاله في عظمتهم.. فكيف إذن نوفق بين هذه المقولات؟)[١].

ويذهب بعض النقاد[٢] إلى القول بأن الأستاذ العقاد استغرق في علم النفس ما جعل "عبقرية محمد " أشبه بدراسة نفسية عن النبي صلى الله عليه وسلم .

والحق أن تلك المقولة لا تصدق على" عبقرية محمد" بقدر ما تصدق على كتاب العقاد عن أبي نواس ، وابن الرومي ، وجدير بالذكر أن الكاتب الذي يعمل بالترجمة لابد له من المعرفة بعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم الأخلاق ، وغيرها من الدراسات الاجتماعية التي تساعده على فهم حقيقة الشخصية التي يترجم لها ، وتلك أدوات مساعدة فقط ، ومن الخطأ أن يعتمد عليها المترجم اعتمادا كليا ، وهذا مالم يفعله العقاد في (عبقرية محمد) وأعجب كل العجب من دراسة العقاد في "عبقرية محمد "عندما يمسك الكاتب بخيط وسط يوازن فيه بين محمد الإنسان ، ومحمد الرسول ، وتلك ملكة وقدرة لا يقدر عليهما إلا العقاد بما عرف من فكر ثاقب ، وقدرة باهرة على سبر أغوار شخصية النبي ﷺ فتفتحت على يديه مكنونات ، وكشف عن خفايا حام حولها الكثيرون ، ولم يستطيعوا أن يقتحموا قلعتها كما فعل الأستاذ العقاد ببراعة منقطعة النظير.

فتقرأ "عبقرية محمد " وكأنك لم تقرأ عنه ﷺ شيء من قبل ، على الرغم من كثرة المؤلفات التي تناولت نفس الموضوع ، ونفس الشخصية.

أما ما قاله الدكتور ماهر فهمي[٣] من أن العقاد يغفل عنصر الامتداد في الزمان والمكان (فالعقاد يحاول في تراجمه أن يضغط كل الزمان والمكان بحيث تحدث تصرفات البطل في لحظة دون انفساح متيح للتطور والتنامي ، والاستفادة ، فما أحسب ذلك مطعنا يمكن أن يوجه إلى العقاد حتى مع

(١) التراجم الغيرية ص٢٥٩.

(٢) راجع : فن السيرة د/ إحسان عباس ، والسيرة تأريخ وفن – ماهر حسن فهمي

(٣) السيرة تأريخ وفن – ص ٣٠

افتراض كونه واقعًا في كل تراجمه ؛ لأن من غير المعقول – على المستوى الفني – أن يهب الكاتب لبطله كل المساحات الزمانية والمكانية التي عاشها وعاش فيها معا ... إن معنى ذلك أن يكتب الكاتب عن بطله أعدادا من الأجزاء بغير انتهاء ، إن بطلا يعيش سبعين أو ثمانين سنة يحتاج إلى أضعاف عددها أجزاء ، حتى يتاح للكاتب استيعابه ورصد حركاته)[١].

ونعيد ونكرر إن العقاد لم يكتب تأريخا أو سيرة للتاريخ حتى يطلب منه الإلمام بكل الحوادث ، والأحداث التي مرت بالرسول ﷺ وإنما كان له هدف آخر وغاية مختلفة – كما سبق أن قلنا – .

وأما ما قاله أحمد عبد الرحيم مصطفى من أن الأستاذ العقاد أهدر المنهج الموضوعي وتعلق بخرائب المنهج الأخلاقي (فالحياة الأدبية والفنية أوسع من أن تضيق بأشتات المذاهب والاتجاهات ، والأنماط بلا حدود ، فإذا أبدع العقاد من خلال منهج أخلاقي تشكيله التحليلي في كتابة التراجم الغيرية فينبغي إذن أن نواجهه على هذا المستوى)[٢] وأن يدرس من خلال هذا المنظور ، وأن يقاس عمله بالمقياس النقدي الملائم له حتى يتأتى الصواب في النقد والمصداقية في الحكم.

وكما أُخذ على د/ هيكل اعتماده في كتابه «حياة محمد» على بعض الروايات الضعيفة ، هكذا رُمي العقاد عندما تعرض الأستاذ سيد قطب لكتاب "عبقرية محمد " ، وقال إن العقاد يستند (علي بضع حوادث بارزة فذة في تاريخ بعض الشخصيات – بعضها غير مقطوع بصحته – لتصوير شخصية بطلها ، ولهذه الحوادث دلالتها من غير شك ، ولكن استعراض سلسلة حياة هذه الشخصية أضمن وأكفل بصحة تصوير الشخصية)[٣].

---

(١) التراجم الغيرية ص٢٦١.

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٣.

(٣) النقد الأدبي أصوله ومناهجه ص ١٤٧.

والرأي ذاته تجده في قول الكاتب: "وفي كل مرة يقبض العقاد بيديه ويضغط بقدميه ويعض بفكيه على نص أو نصين وربما لاتدري من أين يأتي بهما ، فهو لا يبالي بمصدر التلقي ؛ كله عنده صحيح إن وافق هواه ، يسير بين المصادر يفتش فيها حتى يجد ما يوافق هواه فينقله ، كان البخاري أم كان الأصفهاني ... ومرة يعتمد على الضعيف والشاذ وما لا يصح ، ومرة يقدم تفسيراته الكاذبة الخاطئة يحرف بها الكلم عن مواضعه ويضلل بها من يقرأ"(١) فهذا كلام مرفوض شكلا وموضوعا ، ومن ثَمَّ فأنا (أخالف من نقدوا العقاد بأنه يختار من الروايات ما يريد ، ويترك ما يريد لأن اعتراضهم ،لايوجه إلا لكاتب يؤرخ لا لكاتب يرسم ملامح شخصية ، وقد يكون لاعتراضهم بعض الوجاهة إذا اختار العقاد رواية ضعيفة ليرجحها على غيرها ، وهذا ما تورط فيه من نقدوه بذلك دون أن يتقدموا بمثال لما اعتمد عليه من الرواية الضعيفة ، وقد يكون الناقد ممن يرى ضعف الرواية المختارة في اعتباره ، ولكن من أين جاءه أن العقاد لم يفحص ، ويختبر ويدقق حتى رجحت لديه تلك التي ضعفت لدى سواه ؟! كان على ناقدي العقاد في هذه الناحية أن يضربوا أمثلة لما يقولون لا أن يكتفوا بالكلام السريع)(٢) بتلك الصورة لابد أن يكون النقد . لا اتهامات ، وافتراءات دون دليل أو برهان.

١) جزء من مقالة بعنوان "عبقريات عباس العقاد ركوب للكذب واستخفاف بالعقول " موقع الشبكة العنكبوتية – منتديات صيد الفوائد سنة ٢٠٠٩

(٢) مجلة الأزهر عدد ربيع آخر ١٤٣٠ هـ- أ.د. محمد رجب البيومي.

(الخاتمة)

وبعد هذه السياحة الفكرية ، والمعايشة التامة لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال ما كتبه الدكتور هيكل في" حياة محمد "، وما كتبه الأستاذ العقاد في " عبقرية محمد " أعترف مطمئنة : أن الأستاذ العقاد رائد " المنهج التحليلي " في التراجم الغيرية على نحو مميز رائع ، وأن الدكتور هيكل رائد "المنهج التاريخي " في تشكيل هذه التراجم الغيرية على نحو رائع سديد .

هذا وقد خلصت من خلال دراستي إلى مجموعة من النتائج هي كالتالي :

١- السيرة غير الترجمة ، فالسيرة تقوم على سرد الأحداث التاريخية أما الترجمة فيغلب عليها الطابع الأدبي ، وإن كانت السيرة التاريخية لا يمكن فصلها تماما عن كونها في الأساس ترجمة للذات أو ترجمة للغير، وهذا ما جعل الدكتور هيكل فنانا وعالما في ذات الوقت ، ويمكن أن ينحى في "حياة محمد" منحى قصصيا أو دراميا مشحونا بغير قليل من العواطف .

٢- إن الحديث عن السير، والتراجم حديث له طابع خاص قريب من نفس كل من يقرأ عنها ؛ فهؤلاء يصلونا بأنفسهم وتجاربهم كأنهم قبس يلمع في دروب الحياة المختلفة نهتدي بهم ونقتفي أثرهم ، وعلى رأسهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

٣- كاتب الترحمة الغيرية ليس أمامه إلا الأحداث الخارجية يتخذها وسيلة للوصول إلى الشخصية التي يترجم لها من الداخل .

٤- تتسم التراجم الغيرية بالموضوعية ؛ لأن كاتبها يعتمد على الأخبار والروايات والوثائق ، وهذا لا يمنع أن تختلط هذه الموضوعية بشيء من ذاتية الفن ، خاصة إذا كانت الشخصية التي يترجم لها تصور مثلا أعلى في نفس الكاتب ، وهذا ما حدث مع الدكتور هيكل في "حياة محمد" ومع الأستاذ العقاد في "عبقرية محمد" .

٥- كان للكاتبين (د. هيكل والأستاذ العقاد) هدف مختلف يسعى كل منهما إليه وأعلن عنه في مقدمة كتابه ، فقد أرادها د/ هيكل دراسة علمية خالصة لوجه الحق ولوجه الحق وحده ، في حين لم يقصد الأستاذ العقاد من خلال دراسته أن تكون سيرة تشابه تلك التي تؤرخ لحياة محمد ﷺ وإنما انتقى ، واختار من حياته ﷺ ما يخدم الغرض الذي كان من أجله كتب العبقرية وهو إثبات العبقرية له صلى الله عليه وسلم في كل جوانب حياته العامة والخاصة بالمقدار الذي يدين به كل إنسان ، ولا يدين به المسلم وكفى ، وبالحق الذي يبث له الحب في قلب كل إنسان ، وليس في قلب كل مسلم وكفى ، هكذا قال العقاد في مقدمة كتابة ، وعلى هذا الأساس لابد أن نفهم " حياة محمد " و " عبقرية محمد "

٦- التزم الدكتورهيكل بالمنهج الذي أعلن عنه ، فحالفه التوفيق في بعض جوانبه ، وجانبه الصواب في البعض الآخر ، وبالمثل كان الأستاذ العقاد ، وقد تم مناقشة ذلك في موضعه من البحث .

٧- من أهم الأسس التي التزم بها د/هيكل في تطبيقه "للمنهج التاريخي "ما يسمى ب " تنامي الترجمة " فتحدث عن الرسول ﷺ من نقطة الميلاد ، وسار وفق الحوادث الطبيعية حتى نهاية حياته مستعينا بالجمع ، والترتيب ، والتفسير، والمناقشة .

٨- من أشد الانتقادات التي وجهت للدكتورهيكل أثناء حديثه عن " حياة محمد " إعتماده في سرد بعض الحوادث على ما كتبه بعض الغربيين ممن يعتمدون في حديثهم على الروايات الضعيفة غير الموثقة ، مما كان سببا في ضعف الاستشهاد، وإضافة بعض المشاهد التي أنكرها علماء السيرة والتاريخ .

٩- من أهم الأسس التي التزم بها الأستاذ العقاد في تطبيقه "للمنهج التحليلي " تركيزه في إثبات العبقرية له صلى الله عليه وسلم في

جانبين من أكثر الجوانب جدلا في حياته ﷺ وهي عبقريته كزوج ، وعبقريته كعسكري وذلك لاتصال الحديث عن المرأة والسيف وهما من أشد مواطن الطعن في حياته صلى الله عليه وسلم .

١٠- من أشد الانتقادات التي وجهت للاستاذ العقاد أثناء حديثه عن " عبقرية محمد " أنه استغرق في علم النفس ما جعل الكتاب أشبه بدراسة نفسية عن النبي ﷺ، فهذا وإن حدث فهو مقبول ؛ لأنه لابد له من المعرفة بعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم الأخلاق ، وغيرها من الدراسات الاجتماعية التي تساعده على فهم حقيقة الشخصية التي يترجم لها خاصة وهو يقصد التحليل والتدقيق والتفسير لبعض جوانب حياته ﷺ.

وفي النهاية أقول : إن الحديث عن حياة الرسول الكريم تطيب له الأفواه ، وتنشرح له الصدور وتدين له العقول... فأعترف أني قضيت قسطا من الوقت أعيش ، وأتنفس طيب رحيقه صلى الله عليه وسلم فأحمد الله أن سوغ لي هذه المعايشة الإيمانية الرائعة بكل المقاييس.

كما أوصي الباحثين بضرورة مواصلة المسيرة في دراسة هذه السيرة العطرة ، فمع كل دراسة يظهر كثير من جوانب حياته ﷺ والتي تؤكد بلا شك أننا أمام شخصية جديرة بأن ينقطع لبحثها أكثر من أستاذ ، ويتخصص فيها ويتوفر عليها ، وما قام به الدكتور هيكل ، والأستاذ العقاد ليس نهاية الطريق، وما زال أمام الباحثين الكثير من الاتجاهات والمناهج التي يمكن إخضاعها لدراسة حياته ﷺ، خاصة تلك الاتجاهات النقدية الحديثة فيدرس الباحث مثلا آليات الحجاج في خطابته ﷺ، أو تداولية الخطاب في الحديث النبوي في جانب معين من الأحاديث النبوية كأحاديث الأحكام مثلا .... وهكذا تستحيل دراسة حياته ﷺ خلقا جديدا ، وبعثا مميزا .

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١- أساليب الكشف عن الموهبيين ورعايتهم – تأليف د/ فتحي جروان – ط- دار الفكر –ط- الثانية – عمان الأردن

٢- أصول البحث الأدبي ومناهجه د/ السيد تقي الدين –ط- دار نهضة مصر .

٣- الأعلام – الزركلي – ط. دار العلم للملايين – بيروت – لبنان – ط ١٦.

٤- البحث الاجتماعي – المنهج وتطبيقاته – دكتورة حكمت العرابي – ط –١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

٥- التراجم الغيرية في الأدب العربي الحديث – المفهوم والأصول والاتجاهات – الأستاذ الدكتور محمد أحمد العزب – ط – مطبعة الإيمان – المنصورة – ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

٦- الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث – دكتور يحيى إبراهيم عبد الدايم – ط – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – لا يوجد رقم ولا سنة الطبع.

٧- حياة محمد – الدكتور محمد حسين هيكل – ط- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م.

٨- السنن الكبرى للبيهقي – ط. دار الكتب العلمية – بيروت – ط. الثالثة – ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

٩- السيرة تاريخ وفن – دكتور/ ماهر حسن فهمي- ط- دار القلم

١٠- صحيح البخاري – ط. دار ابن كثير – دمشق/ بيروت – ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

١١- صحيح مسلم "بشرح النووي" – ط. الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية – القاهرة – ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.

١٢- عبقرية محمد – الأستاذ عباس محمود العقاد – ط- مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر ، لا يوجد رقم ولا سنة الطبع

١٣- العقاد وتراثه الإسلامي – دكتور حمد نايف الشمري مطبعة التقدم – القاهرة – لا يوجد رقم ولا سنة الطبع.

١٤- فتح الباري بشرح صحيح البخاري –ابن حجر العسقلاني – تحقيق محب الدين الخطيب وآخرون ط- دار الريان للتراث – القاهرة.

١٥- فن السيرة – دكتور إحسان عباس – ط. دار الشروق – عمان – ط – الخامسة ١٩٨٨م.

١٦- لسان العرب – ابن منظور – ط- دار إحياء التراث العربي – مؤسسة التاريخ العربي – بيروت – لبنان – ط. الثانية ١٤١٢هـ.

١٧- مجموع الفتاوى – شيخ الإسلام ابن تيمية – ط. المكتبة التوفيقية – القاهرة – لا يوجد رقم ولا سنة الطبع.

١٨- مصادر السيرة النبوية وتقويمها – دكتور فاروق حمادة – ط. دار الثقافة للنشر – الدار البيضاء – الطبعة الثانية.

١٩- معجم المصطلحات الأدبية – إبراهيم فتحي – ط- التعاضدية العمالية للطباعة والنشر – تونس

٢٠- نقد آراء ومرويات العلماء والمؤرخين على ضوء العبقريات – صالح بن سعد اللحيدان – ط- دار راجح – دمشق

٢١- النقد الأدبي أصوله ومناهجه – الأستاذ/ سيد قطب – ط – دار الشروق – ط- الرابعة – ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠ م بيروت لبنان.

الدوريات

(١) مجلة الأزهر – عدد ربيع الأول ١٤٣٠ هـ – مارس ٢٠٠٩م.
وعدد ربيع الأخر ١٤٣٠ هـ .
وعدد جمادي الأولي ١٤٣٠ هـ- مايو ٢٠٠٩ م.

(٢) مجلة الثقافة العدد ١٧٥ – ٥ مايو ١٩٤٢م.

(٣) مجلة الرسالة العدد ٤٦٢ مايو ١٩٤٢م.

موقع الشبكة العنكبوتية

١- منتديات صيد الفوائد .

٢- مجلة مصراوي – النسخة الالكترونية العدد ٣ سنه ٢٠١٧